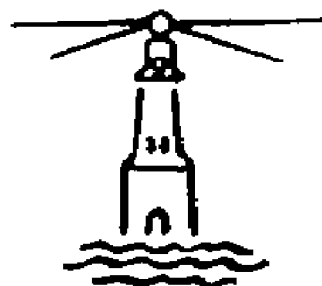


اقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



طاهر أحمد الطنّاحي

نسيب الكروان

اقرأ ٣٠٢

دار المعارف بمصر

اقراء ٣٠٢ - فبراير سنة ١٩٦٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

الحياة قصص

الحياة الإنسانية منذ نشأت على الأرض سلسلة من القصص القصيرة والطويلة والضاحكة والباكية ، والغريبة ذات الخطر ، والعجيبة ذات العبر . ولقد بدأت حياة آدم وحواء بقصة الشجرة التي أخرجتهما من الجنة ، وأصيبا بمأساة هابيل وقابيل بل كان وجودهما قصة البشرية الكبرى . . . وما من عصر من العصور إلا كان زاخراً بالقصص ، وما من كتاب مقدس إلا جمع ألواناً كثيرة من قصص الحياة ، وما من تاريخ إلا كان مجموعة من قصص الأفراد والجماعات ، وما من خيالات قصصية ، ومؤلفات روائية إلا كانت مستمدة مما يعيش الناس فيه من أحداث وطباع وأخلاق وعادات ، ومسرات وأحزان .

ولعل القصة هي أقدم ألوان الأدب ، لأنها تصور حياة الناس وأسلوب معيشتهم وتكشف عن ميولهم ، وما يقدسونه من مبادئ ، ويسرون عليه من عادات . وليست قصة « أوبيا أونر » أحد كهنة الفراعنة وسحرتها إلا لوناً من هذا الأدب الذي يتضمن العظة والعبرة ، وينقل لنا جانباً من حياة الأقدمين . . فقد كانت زوجة هذا الكاهن فتاة لعوباً عشقت فتى جميلاً كان يتردد على حديقته ، ويستحم بحيرة هذه الحديقة . وكان البستاني يتغافل عنه لأن زوجة الكاهن تصله بصلات ، وترضيه بمكافآت . وذات يوم قصر في واجبه فنهزته وأنذرته بالطرد إذا عاد لفعلته ، فأسرهما في نفسه ، وحلف ليفشين سرهما . . وكان « أوبيا أونر » مسافراً مع الملك

« نب - كا » فلما عاد أنبأه البستاني نبأ هذا الفتى وتردده على الحديقة ، فغضب الكاهن ، وعزم على الفتك بغريمه ، فصنع تمساحاً من الشمع ، وقرأ عليه بعض تعاويذه ، وقال له : « كل من أتى إلى هذه البحيرة فاقبض عليه » ثم أعطى البستاني التمساح ، وقال له : « إذا جاء الفتى ونزل البحيرة ، فارم التمساح فيها ! »

فلما جاء الفتى كعادته ، ونزل البحيرة ، رمى البستاني التمساح الشمعى ، فانقلب تمساحاً حياً كبيراً ، فقبض على الفتى بفكيه ، ولم يستطع الإفلات منه ، وأقبل الكاهن قرآه على هذه الحال ، فذهب ترواً إلى الملك ، وأطلعه على هذه الحيلة ، فحضر الملك « نب - كا » ووزرائه ، وأبصروا الفتى فصرخ وهو في فم التمساح ، فدهشوا ، ثم أمر الكاهن التمساح أن يترك الفتى فتركه وعاد تمساحاً من الشمع ، فعجب الملك ثم أمره أن يعيده حياً ، فأعاده ، فقال الملك : « أيها التمساح خذ فريستك » فهجم على الفتى ، وحمله بين فكيه ، وغاب به في جوف البحيرة !

تلك قصة من قصص أوراق البردى التي حصلت عليها « مس وستكار » والمحفوظة الآن بمتحف برلين ، وهي تحكى لنا جانباً من حياة الفراعنة ، وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم ، كما تصور الحياة والغيرة ، والانتقام والدفاع عن الشرف وعقاب المجرم الخارج على نظام الجماعة . وهي في الوقت نفسه قصة من قصص الحياة تتناول مشكلات من أقدم مشاكل المجتمع ، وهو الحب الآثم والتنافس العاطفي حول المرأة . . .

. وقد كانت القصة في الماضي تروى للعبرة والتسلية ، وما زالت العبارة والتسلية عنصراً هاماً في القصة ، ولكنها في العصر الحديث أصبحت رسالتها لا تقتصر على ذلك ، بل تحوى دراسات ممتعة للأشخاص والحوادث ، وتحلل بأسلوبها الفني النواحي النفسية ، وتهدف إلى حل مشكلة من المشاكل الاجتماعية ، وتتضمن رياضة ذهنية ، كما تتضمن

طائفة من تجارب الدنيا ، ودروس الحياة ، وهي من أجل ذلك فن يفيد الناشئة . وقد عنت الأمم الراقية بدراسة القصة في مدارسها وجعلها مادة من مواد الدراسة ؛ وقد ذكرها أفلاطون في جمهوريته حين تكلم عن تربية طبقة الحكام ، كما أوصى سقراط بها حينما دار الحوار بينه وبين ديميتس عن تربية الأطفال إذ قال سقراط :

« إنى أفضل أن نضم القصص إلى الموسيقى في تربية الأطفال . وهناك نوعان من القصص أحدهما وهمي والآخر حقيقي ، ولنبدأ بالوهمي ، على أن الوهمي يوصف بذلك ، ولكن مغزاه حقيقي ، فلنرو للأطفال الأساطير قبل تمرينهم على الألعاب الرياضية ، ويجب علينا أن نشرف على واضعي الأساطير ، واختيار أصلحها ونبتذ ما لا يصلح » .

فالقصة لها شأنها في غرس الفضائل الإنسانية في الأطفال ، واستغلال ميولهم إلى المحاكاة في تصوير البطولة والشجاعة والوطنية وغيرها من المثل العليا . وقد كان لكتاب كليلة ودمنة في اللغة العربية ، وقصص جان دولافونتين في اللغة الفرنسية أثرهما في التربية ، على الرغم من أن أقاصيصهما تروى عن الحيوانات ، فإن في حياة الحيوان عبراً كثيرة ، ومعارف شتى . وقد قال سليمان الحكيم للكسلان : « عليك بالتعلم في مدرسة النمل » !

والقصة بمعناها القديم موجودة في الأدب العربي ، كما هي موجودة في سائر الآداب . وهو زاهر بالقصص الأدبية ، والتاريخية ، والاجتماعية والفكاهية . ولكنها بمعناها الحديث ترجع إلى نحو تسعين عاماً . وقد ظن بعض الكتاب أن مصر كانت خالية من القصة الحديثة والمسرحية في أسلوبها العصري ، ولم تظهر إلا منذ خمسين عاماً في إحدى المحاولات ، ولكن الواقع أن القصة العربية الحديثة يرجع عهدها إلى سنة ١٨٦٨ وهي السنة التي تأسست فيها دار الأوبرا ، فقد ألف المرحوم محمد عثمان جلال في نحو هذا العام أو بعده بقليل مسرحية « المخدومين » التي مثلت في

الأوبرا ، فكان أول رائد للمسرحية العربية ، ثم ترجم رواية « ترتوف » لموليير ، وتصرف فيها تصرفاً جعلها ملائمة للحياة الشرقية ، ومثلت عدة مرات باسم « الشيخ متلوف » وترجم قصة « بول وفرجينى » بأسلوب مسجع قبل أن يترجمها الممثلون بعدة سنوات ، كما ترجم قصص لافونتين بالشعر العربى . وألف قصصاً شعرية قصيرة تتضمن كل منها عبرة أخلاقية أو عظة اجتماعية . ونذكر من ذلك قصة « الصياد الجبان » :

وحكوا أن صائداً راح يوماً	للخلا فى مراتع الغزلان
فراه الخطاب قال له ارجع	ها هنا السبع شعلة النيران
قال : ما السبع إنما هو قط	حكمه سائر على الفيران
أنا لا أرهب الوحوش وعندى	فى يمينى صفائح الليمانى
وعلى ساعدى كنانة نبل	وكلابى حولى وتحتى حصانى
ثم ما تم القصيدة حتى	جاءه السبع بغتة فى المكان
فجرى بالحصان منه وولى	خائفاً هارباً لدار الأمان
« كل من يدعى بما ليس فيه	كذبه شواهد الامتحان »

وقد ألف وهبى تادرس ناظر مدرسة السقاين القبطية سنة ١٨٨٥ مسرحية يوسف الصديق وقد مثلها طلبة هذه المدرسة على مسرح الأوبرا لمساعدة الجمعية الخيرية القبطية ، وفى سنة ١٨٩٧ ألف أحمد شوقى رواية « عذراء الهند » وهى رواية تاريخية ، ولكن معظمها لا يستمد من التاريخ الصحيح ، وقبل ذلك بنحو سبع سنوات ألف جورجى زيدان المملوك الشارد ، واستبداد الممالك ، وأسير المتمهلى ، وجهاد المحبين ، ثم بدأ ينشر فى الهلال روايات تاريخ الإسلام ، وبعد هذا المجهود الضخم الذى قام به مؤسس الهلال ظهرت رواية زينب للدكتور محمد حسين

هيكل ، ثم روايات المنفلوطى مؤلفة ومترجمة . وبهذا الفتح ظهر لون جديد فى كتابة القصة العربية الطويلة والقصيرة بطريقة شائقة وأسلوب فى حديث .

وهذه أربع عشرة قصة قصيرة ، أقدمها للقراء بأسلوب فى جديد ، بعضها من رياض الأدب ، وبعضها من التاريخ ، والبعض الثالث من وقائع الحياة . وقد سميتها باسم القصة الأولى منها . وذلك من إطلاق اسم الجزء على الكل كما يقول علماء البيان .

وهى تهدف إلى الثقافة الصالحة ، والتسلية النافعة ، وتصور الحياة الإنسانية الخالدة ، وتعالج طائفة من أفراسها وآسيها ، وبساتينها ودموعها ، وما فيها من حب وكراهية ، ورحمة وقسوة ، وزهد وطمع ، ولذة وألم ، ونجاح وفشل ، ويأس وأمل ، وتسامح وانتقام ، وأمثلة الشجاعة والبطولة والإقدام . . . ١

طاهر الطناحى

نشيد الكروان

م يكن يعرف المرض من قبل ، ولم يعرف المرض إليه سيلاً ، وكان يدافع الأيام بلا حذر ، ويغالب الصعاب بلا وهن ، وأقصى ما يصاب به زكام يعتريه عاماً بعد عام ، أو في كل عام مرة . وهو إلى ذلك خفيف الوطأة عليه لا يحسب له حساباً ، ولا يحول بينه وبين جهاد الحياة .

وكان لا ينفك يتحدث إلى زملائه أنه لم يصب قط بمرض إلا في الخامسة من عمره حين أصيب بالتيفود ، وأنه منذ ذلك الحين صار له من المناعة ما تغلب به على كل داء . وكان بعض زملائه يفاكهونه ويلحون في الفكاهة ، ويقترحون أن يقيم حفلاً للزكام كل عام . . . وكان هو يفاكههم ويعددهم بأنه سيقم حفلاً لا يدعو إليه إلا المزكومين . . . !

وكان يؤمن بالقدر ولا يخشى المرضى بالحميات ، ويزاحم بين المزاحمين في الطريق والسيارات ، ويتعرض للحر والبرد ، ولا يعبأ بالعدوى ، أو يكرب نفسه بالحموم ويكرر قول أبي العلاء :

أيها المهموم يوماً لا تُهَمَّ إن تكن تُقدر لك الحمى تُحَمُّ

وهو لا يؤمن بالأدوية والعقاقير ، وقد قرأ لابن سينا « أن الطبيعة تداوى نفسها » ، وللعالم الإنجليزي الدكتور سميث « أن الأدوية لا تشفى أى داء ، بل الذى يشفيه هى الخاصية الطبيعية للجسم » . وهو يعنى قوة الجسم . . . !

ومن قبل قرأ للدكتور ستيفنس الأمريكى أحد أساتذة جامعة نيويورك :
 « أنه كلما تقدم سن الأطباء قل اعتقادهم فى تأثير الأدوية ، وزادت
 ثقهم فى قوى الطبيعة ، وأن العلاج لا يشفى المصاب ، ولكن الذى يشفيه
 هو القوة الحيوية الموجودة فى جسمه » .

وإذن فهو يتذرع بهذه القوة الحيوية ، فقد أنقذته من الحمى فى
 طفولته وجنبته الأمراض طول حياته ، فعاش صحيح البدن سعيداً مسروراً .
 وسعادة الاستمتاع بالصحة لا تعدلها سعادة ، والسرور بها لا يعدله
 سرور ، وقد قال ابن المقفع : « ليس من سرور الدنيا ولا سعادة الحياة
 شئ يعدل صحة الأبدان ! »

° ° °

وما كان صاحبنا يفكر فى المرض والمرضى ، لأن الصحة تنسى
 الآلام ، ولأن القوى لا يشعر بما يعاينه الضعيف ، ولأن السائر المغد فى
 ركب الحياة لا يعبأ بمن يسقط فى مفترق الطريق !

وزاره يوماً محترف للتنجيم وقراءة الكف ، وجعل يحدثه عن خواص
 هذه القراءة وكيف أنها تكشف عن الماضى والحاضر ، وتنبئ بالمستقبل .
 وصاحبنا يستمع إليه ، ويبتسم ، لأنه لا يعتقد بالتنجيم ولا يدين بالكشف
 عن الغيب ، ويتمثل بقول القائل :

ينجمون وما يدرون لو سئلوا عن البعوضة أنى منهم تقف

ولكنه لم يتردد فى بسط كفه حين دعاه هذا المنجم إلى بسطها ليقراً
 فيها مستقبله ، بل لعله اشتاق إلى معرفة ما تحويه سطورها المتساوية
 والمتعرجة ، والصاعدة والنازلة ، والتى يقول عنها المنجم إن لكل منها معنى
 وإشارة تكشف عن المستقبل ، ولا يدرك قراءتها إلا الراسخون فى هذا العلم .
 وهذا المنجم من الراسخين فيه كما يقول وهو من مشاهير قراء الكف فى
 القاهرة ! !

وحدد المنجم في كفه قليلاً ، ثم قلبها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، وجعل يقرأ خطوطها خطأ خطأ حتى جاء إلى « خط المرض » ، فزعم له أنه سيمرض مرضاً طويلاً وقد يكون هذا المرض بعد عام أو بعد أشهر معدودات لأن خطه قد تشى وانقبض وأنذر بقربه !

واهتزت نفس صاحبنا هذه المرة ، وشعر وقتئذ بشيء لم يكن يشعر به من قبل — شعر أن حادثاً مؤلماً قد يقع له ، ويعكر صفو حياته ، وتذكر أنه منذ مدة تنبأت له منجمة تدعى « الشيخة زبيدة » بهذه النبوءة نفسها فلم يصدقها ، ولم يعبا بها. ولكن ما له يشعر الآن هذا الشعور الغريب وهو لا يصدق المنجمين ؟ !

وأوى في المساء إلى فراشه ، فرأى أباه المتوفى في ثياب قاتمة وقد جلس إلى سريريه صامتاً واجماً في حزن وألم ، فهب من نومه مذعوراً ، وجعل يفكر — في اكتئاب — في هذه الرؤيا ، وكيف تتفق ونبوءة المنجم ، ولماذا يرى أباه على هذه الصورة الحزنة ، ولا يراه في صورة أخرى ؟ ثم لماذا يرى نفسه مريضاً مستلقياً لا يستطيع حراكاً ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ؟ !

« إننى سأمرض عما قريب . . لا شك في ذلك . . وإلا فلماذا وافقت النبوءة الأحلام ، وشابه ما سمعته في اليقظة ما رأيته في المنام ؟ »

يا لله ! . . ما أضعف الإنسان ! وما أوهن إرادته حين تسيطر عليه الأوهام ! ما هذا الذى انتاب صاحبنا ، فأضاع ثقته بنفسه ، وإيمانه بقوة بنيته ؟ ما باله يخشى المرض ويتوقعه وتؤرقه هذه النبوءة ؟ ألم يؤمن بالقدر ، وبأن كل شيء مقدور على الإنسان ، وقد يمرض وقد لا يمرض ، فلماذا يرجح الأول على الثانية ، ولماذا يتشائم بما تأتى به الأيام . وقد تأتى الأيام بالصحة لا بالمرض ؟

ونخالجه شعور قوى بأنه سيمرض عما قريب ، وزاد في هذا الشعور ما كان يقرؤه في ذلك الحين لطائفة من المتشائمين ، وجعل يكرر من من أقوال أحدهم :

يا صاحبي اللذين استشفيا لضغني بمن تلوزان أو ممن تعودان
بقراط عمرى وجالينوس ما سلما والحق أنهما في الطب قذان

• • •

وفجأة شعر صاحبنا بالألم يداعب رأسه ، ثم تكون « حمى » .
« إلى المستشفى ! . . إلى المستشفى ! . . إن هذا الداء لا يعالج في البيت ! ! »

هذا ما قاله الطبيب ، ويسمع أقرباؤه هذه الكلمة ، فيشفقون ، ويرجون أن يعالج في البيت ، فيجيب الطبيب : « كلا ، إن البيوت لم توجد للعلاج والتريض ! »

وقد صدق الطبيب ، فإن الذين يعالجون مرضاهم في بيوتهم إنما يحنون عليهم وعلى سكانها جنابة كبرى ، بل قد يدفعون بهم إلى أفواه المقابر ، ومن الغريب أن هذه الجريمة الصحية لا تلقى عناية من القانون !

ويرضى صاحبنا بالعلاج في المستشفى حيث يتوافر فيه من الوسائل ما لا يتوافر في البيوت ، وحيث يعنى به عدد من الأطباء والممرضات لا يتاحون لأي مريض في برجه العاجي ، أو في قصره المنيف .

وتكون ساعة مروعة ، ويكون مشهد مهيب : ها هوذا يجمع أولاده ليودعهم ويغلبه الأسى ، فيقول : « يا لله ، هل أعود سالماً ، أو لا أعود إلى هذه الفراخ الزغب الصغار » ! إن الحياة أقل من أن يأسى عليها الإنسان ، إلا إذا كان فيها أحياء وراء الحى يحيون بحياته ويموتون بموته . . !

وتحضر عربة المستشفى ، ويصعد الموكلون بها وهم يحملون الناقلة إلى حيث يقيم . . ها هم أولاء يلفونه في أغطية ، ثم يحملونه على أكتافهم

نازلين ، وها هم أولاء يجتازون به باب المنزل إلى الحديقة ملفوفاً محمولاً كما يحمل الموتى . فلايكادون يخرجون به حتى يفاجئ هذا المنظر المؤثر عدداً من السيدات المرتديات ملابس العرس في بيت جاره الذي يحتفل بزفاف بنته في ذلك اليوم . وقد حضرن لمرافقة عروسهن ابنة هذا البحار إلى بيت زوجها . فقد كان مقرراً أن تكون حفلة العرس النهارية مقصورة على آل العروسين في غير ضجة ولا إعلان ، وصادف - على غير علم - أن يكون خروج العروس إلى زوجها في تلك الساعة التي خرج فيها صاحبنا محمولاً إلى المستشفى .

ما أفسى المقادير ، وما أعجب المصادفات . . بل ما أسوأها . . إنها مأساة هائلة من مهازل الدنيا التي لا تنهى ، وأعجوبة من أعاجيب الحياة !

لقد سكت آل العروسين وكفوا عن مظاهر الابهاج . وانطلقت العيون بالدموع من كل مكان ، وكأنما كان يشهد صاحبنا جنازته حتى كاد يشك في نفسه ، هل هو في يقظة أو منام ، وهل هو حي أو ميت ، وهل يحمل إلى « الحميات » أو إلى مقابر الأموات ؟

* * *

وتصل العربة إلى المستشفى في المساء ، فيرى وجوهاً غير الوجوه التي تعود أن يراها ، وأزياء غير الأزياء التي كان يعرفها ، وحياة جديدة في كل شيء ، لقد ترك عالم الأصحاء وانتقل إلى عالم المرضى . . إنه الآن مريض ، وهو لا يدعى باسمه من الأطباء والمرضات بل بالرقم ٨ وبالعرفة رقم ٨ وبالمريض رقم ٨ وكأنما المرض قد ذهب باسمه وشخصه كما ذهب بصحته وحرية . . ! !

ويمر به سرب من طائر الكروان الذي يحبه منذ كان صبيّاً ، ويستمتع إلى نشيده ، وهو سابح في الجو في بهجة وحرية ، فيتهيج لهذا الطائر ،

ولما هو فيه من صحة وحرية ، ولكنه لا يلبث أن يأسى لحظة ، ويحزن لقلبه وسجنه بين المرضى والمستشفى . . .

إن المرض سجن أليم تفرضه المقادير على المرضى . . . إن المساجين الذين حكم عليهم القضاء العادل بالسجن والتعذيب لأخف حالا من المرضى . . . إنهم لم يسلبوا الصحة حين سلبوا الحرية . . . إنهم يقومون ويقعدون ، ويأكلون ويشربون ، ويتنسمون نسيم العافية على الرغم من ظلام السجون . وحسبهم ذلك في نظر المرضى الذين لو وازنوا بين جبل من ذهب في علة ، وخطوة من الخطوات في عافية لرجحت عندهم هذه الخطوة بما فيها من سعادة لا تقدر بمال .

* * *

وينام صاحبنا ساعة في غرفته الجديدة ، ثم يستيقظ ، فلا يذكر شيئاً من هموم الحياة إلا هؤلاء الفراخ الزغب الصغار الذين خلفهم وراءه ، فيعاوده الأسى ، ويسأل ممرضته : « ألا يمكن أن يزورنى أولادى مع الزائرين » ، فتجيب الممرضة : « ذلك غير ممكن . . . إن نظام المستشفى يحرم دخول الأطفال » . . .

وتسكت الممرضة ، ويسكت المريض . وهنا يسمع صوت أنين من غرفة مجاورة ، ويسأل صاحبنا الممرضة عن هذا الأنين ، فتجيب : إنه لمريض فى حالة خطرة ، وقد أشرف على النهاية ، فيتوجس صاحبنا ويبتس ، ويسهر ليلته ذاكراً أطفاله حتى الصباح .

وتدخل الممرضة مع شروق الشمس فى صباح اليوم التالى ، فيسألها عن جاره المريض . فتجيب إنه فى سكرات الموت ، وإنه فى غمرة هذه السكرات لم ينس أطفاله طول الليل ، فقد كان يناجيهم ، ثم يناديهم بأسمائهم واحداً واحداً - وكأنما هم واقفون أمامه - وكان يحدثهم ، أو يخيل إليه أنه يحدثهم فرداً فرداً ، ويبدل لهم من عطفه وحنانه فى عبارات

مؤلمة ، وصوت مؤثر . وكأنما حين حرمه نظام المستشفى أن يراهم في يقظته شاء الله أن يراهم بروحه قبل أن يفارق هذه الحياة ويصعد إلى السماء !
ويذرف صاحبنا عبرة من عبراته على هذا المسكين الذى ودع الحياة وداعه الألم . . ويتملكه الوجد ، ويحدث نفسه فى اكتئاب :
« هل يقدر له أن يودع الحياة هذا الوداع الفاجع ، وأن ينتهى إلى هذه النهاية القاسية ، فلا يرى أولاده إلا فى سكرات الموت خيالا وأوهاماً ؟ ! »
ويفاجئه صديقه الطبيب فى هذه الحال ، فيجد الدمع يترقرق فى عينيه ، فيحسب أنه يستوحش من المستشفى ، ويثقل بالمرض ، ولا يستطيع له صبراً ، فيقول له :

« مالك تبكى . . هل خالجتك الوهن ، وأين إرادتك القوية التى حدثتني عنها ، وما لك تيأس وتجن ، وحالك لا تدعو إلى اليأس والجن ؟ ! »
فيجيب : « كلا . . وهل عهدتني يوماً جباناً ؟ ! »
ويمسح عينيه ، ويخفى ما عنده من أسى وأشجان . .

* * *

ويشتد المرض على صاحبنا شيئاً فشيئاً ، حتى يدنو من الموت أو يكاد . ويقف الأطباء حوله يكشفون ، ويبحثون عن الداء حائرين . .
لأنه أصبح محطم القوى ، منهوك الجسم ، يخفق قلبه خفقاناً سريعاً كأنما هو فى جناح طائر . ولكن ما بال التحليل لا يكشف عن نوع المرض ، وما بال الأطباء مهمومين ، وما بالهم يشيرون ويتهايمسون ؟ !
وينسى صاحبنا فى شدته كل شيء فى الدنيا حتى أولاده . . فما عاد يفكر فيهم حين صار يفكر فى « الله » ، وينعم بهذا الجمال الأعلى ، ويطمئن إليه ، ويتوكل عليه . . . !

ويدنو من التصوف ، بل يصير متصوفاً ، فينظر إلى الحياة الدنيا وما فيها من آمال وأطماع ، فتصغر أمامه ويحدث نفسه :

ما أتفه الإنسان . . . علام كل هذه المتاعب . . . ولماذا هذا الجهاد الشاق . . . وهلا أراح الإنسان واستراح . وتمتع بالحياة الهادئة القانعة في ظلال حب الله والتفكير في ملكوته ؟ !

نعم أصبح صاحبنا متصوفاً . . . أو قل إنه عاد إلى التصوف ، فقد كان في مقتبل حياته يعجب بالمتصوفين ، ويسلك مسلكهم في الإخلاص لله ، والتجرد عما سواه ، ويصعد بروحه إلى عالم التقديس ، ويزهد في متاع الدنيا ومشاعلها المادية يوم كان غير مسئول عن هذه المشاغل . . . فلما شب وحاسبته الحياة جعل لها حساباً من نفسه ووقته وراحته ، وانغمر فيها ، وألته الدنيا ، وأنسته التصوف والمتصوفين . بل لعله كان يستخف بهم حين رآهم يستخفون بالدنيا ، وطالما أنكر أساليبهم في تعذيب الجسد للوصول إلى صفاء الروح ، وطالما عجب لصبرهم الطويل على هذا العذاب ، فلما مرض وتعذب جسده بآلام المرض ، وعجز عن كل شيء ، انكشف عنه الحجاب ووجد في العالم الأسنى نعيماً ونوراً ، وسراً مكنوناً لا يمكن الوصول إليه إلا بإرهاق الجسد . . . والمرض أشد أنواع الإرهاق ، وهو جدير بأن يسمو بالروح إلى الله ، وقد سما بروحه إلى الله وطهره من أدران المادة ، واغتنبط لنفسه وزملائه المرضى حين أوصله المرض إلى هذا المدى العلو العظيم . . . ! !

* * *

وتغيرت نفسية صاحبنا ، فزال عنه ما كان يشعر به من تشاؤم ، وزايله ما كان يعتوره من يأس ، بل دب الأمل في نفسه حين سما به المرض من المادة إلى الروح . . . واطمأن طبيبه إلى هذه الحال الباسمة ، فقد كان من قبل يطلب إليه ألا يبتئس ، وألا ييأس وأن يهون على نفسه ، فإن الصحة لا تدخل الغرفة التي يملؤها ظلام اليأس والعبوس وضعف الإيمان !

وفجأة يصمت صاحبنا في سكون الليل ، وإذا الطائر المحبوب يقبل في سريره ، مترنماً بنشيد . . فيحدث نفسه : هذا هو الكروان يزورني الليلة . ما له غاب عني طويلاً ، وكان يؤنسني كثيراً . إنني أتفاعل بأنغامه ، وأتبهج لتسبيحاته الخالق الكون . . نعم إنني أشعر الليلة بالتفاؤل والهدوء والاطمئنان . . إنه هدوء الإيمان .

وينام صاحبنا ، وقد طوى في الحمى تسعين يوماً ، وكانت حرارته في التاسعة والثلاثين . وأشفقت الممرضة من حرارته فأحضرت « طاقة الثلج » فأبى أن يضعها على رأسه وقال لها :

دعني . . دعني . . فما يغنيني الثلج ، وما يدفع عني شيئاً ، ولست أخشى ما تشفقين منه ما دمت في ظلال الله ، وما دمت أجد في هذه الظلال برداً وسلاماً . . !

ثم حملة النوم بعد ساعة فرأى في منامه شبحاً في صورة شيخ مرتد بالملابس البيضاء يقف في وسط الغرفة ثم يقترب منه رويداً رويداً . . ثم يمسح جسمه بيده من رأسه إلى قدميه ، ثم يهتف في صوت هادئ كأنه التسبيح :

ذهبت الحمى . . ذهبت ، ولن تعود بعون الله وكريم فضله ورعايته . . !

ويردد الهاتف هذه العبارة في صوت يسمعه وكان الليل قد انتصف ، فينهض صاحبنا من سريره في خوف ممزوج بالبشر ، وقد شعر بأن شيئاً ثقيلاً قد زال عنه وأحس بأن حرارته قد انخفضت إلى حالتها الطبيعية . . ويدق الجرس ، فتدخل الممرضة مسرعة ، فيطلب إليها أن تقيس حرارته فتفعل ، ويجدها ٣٧ درجة ونصف الدرجة . . فيحدث نفسه ما هذا ؟ إن « الشبح » قد قال إن الحمى قد ذهبت فما بالها هكذا ؟ . . إنها ما زالت موجودة . . !

وتطفيء الممرضة النور ، وتخرج ، ويعود صاحبنا إلى نومه ، ويعود الشبح واقفاً في وسط الغرفة ثم مقرباً منه مزيجاً الغطاء عنه ، ويكرر ما قاله مرة أخرى . ويهب صاحبنا خائفاً ، ويدق الجرس وتدخل الممرضة مسرعة وتسأله عما يريد ، فلا يتكلم وتقترب منه ، فتجده قد أغرق في نومه فتعود لتطفيء النور وتخرج . . وبعد برهة تسمع الممرضة صوتاً في « الغرفة رقم ٨ » يقول :

— نعم لن تعود . . لن تعود . . !

وتسرع الممرضة إلى حيث الصوت ، إنه صوت مريضها رقم ٨ ، ولكنها كانت تركته غارقاً في نومه فما الذي أيقظه ، وما هذا الذي يهتف به يا ترى ، ومن ذا الذي يحدثه ، وهو في الغرفة وحيداً .

وتكشف الغطاء عنه فيستيقظ وينهض قائلاً : « هل كنت هنا قبل الآن ! » فتجيبه : « لا » ، فيحدثها عن الشبح وما قاله ، ويطلب إليها أن تقيس حرارته مرة ثانية فتجدها كما هي في المرة الأولى ، فيقول في نفسه : « ما هذا ؟ ألم يقل الشبح ثلاثاً إن الحمى قد ذهبت ، ولن تعود ؟ أيمكن أن يكون ما رأيت الليلة أضغاث أحلام ؟ . . كلا إنها ليست كذلك ، بل هي رؤى صادقة . . وما هذا الشبح إلا روح كريم » .

ومضت ليلتان ثم كان مساء الليلة الثالثة ، وقد اطمأن صاحبنا إلى حاله وأيقن أن القدر يعاونه . وإنه لذلك إذ دخل عليه فجأة متصوف صالح كان يعرفه وكانت الساعة العاشرة . فتعجب كيف تسوق المقادير هذا الرجل في هذه الساعة المتأخرة من المساء ، وكيف يسمح له المستشفى بالدخول ، وهو إلى ذلك لم يره منذ عدة سنوات ، وقد نسي شخصه واسمه ، فما عاد يعرفه ، ثم تقدم المتصوف إليه في هدوء ، وأخذ يمسح جسمه بيده من رأسه إلى قدميه كما فعل الشبح في منامه ، وهو يقرأ بعض آيات القرآن الكريم ، ثم رفعها وهو يقول :

ذهبت الحمى . . ذهبت ولن تعود بعون الله ورعايته . . !

واهتزت نفس صاحبنا واقشعر بدنه ، ثم خرج المتصوف مبشراً مودعاً ،
وجلس هو مفكراً حائراً بين رؤياه وما قاله الشيخ فيها ، وبين قدوم هذا
المتصوف في هذه الساعة وما فعله وما قرأه وما بشر به ، وهو لم يكن يفكر
فيه أو ينتظر قدومه وهو لم يزره من قبل في خير أو شر ، وخالجته شعور
عجيب ، ثم ذكر أن طبيبه الكبير قد وعده بالشفاء إذا استوفى العلاج ،
وقد استوفى العلاج ، ولا بد أن الحمى ستزول : أو أنها في طريقها إلى
الزوال .

ويزوره الطبيب في الصباح : ويكشف ويبشج ، ثم يقول :

تبارك الله . . إن القدر يعاوننا الآن . . إن الحرارة قد زالت تماماً .

والحمى قد ذهبت . . !

فيجيب المريض :

نعم . ولن تعود . . !

أحمد اليتيم

في ظلام الليل والناس نيام ، وقد هدأ كل شيء ، إلا قلب واحد كان يرتجف خوفاً وأسى ، ألقى مجهول طفلاً جميلاً حديث الولادة بجانب « السقاية » التي بناها السلطان أحمد بن طولون ليستقي منها الظامئون من أبناء السبيل ، ثم تركه وحيداً ملفوفاً في ثوب خفيف لئلا يدل على الخوف والاضطراب . فأخذ الطفل يبكي ويصيح ، ولا أحد يأسي لبكائه ، ولا أم تهرع إليه شفقة منها وحناناً ، ولا أب يبحث عنه ، أو يفكر في أن له فلذة من كبده قد لفها الليل في أطوائه ووحشته ، وقد دفعته الخطيئة — دون ذنب جناه — إلى هذا الإهمال والحرمان ، وقذف به الحياء من المجتمع إلى هذه الوحدة بعيداً عن عطف الأم ورعاية الأب . ولسان حاله يقول :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

وقد مكث في هذا الظلام الموحش ، وفي هذا المكان الذي خلا من كل شيء إلا من أنينه الحزين ، وهنينه الأليم ، حتى مطلع الفجر . ثم احمر وجه الصبح على بكائه ولطفته على صدر حنون يضمه ، وعلى ثدى يحنو إليه ويرضعه ، وعلى فراش يشفي آلامه ويوفر له في طفولته العاجزة راحته ومناحه . ولكنه لم يجد هذا الصدر ، ولم يسعف هذا الثدي ، ولا أوى إلى هذا الفراش ، فاشتد به البكاء والصراخ ، فتنبه إليه شرطة الحي حين بدءوا حليتهم اليومية في الصبح . فلما سرعوا إليه ، وحملوه إلى دار

الشرطة وأعلنوا عنه في أحياء المدينة ، فلم يتقدم إليه أحد ، ولم يتحرك له إلا قلب واجف مكلوم يخفق من وراء ستار بعيداً عن الأهل . . . بعيداً عن الشرطة . . . هارباً من المجتمع !

وأبلغ الشرطة أمر هذا اللقيط إلى أحمد بن طولون ، وكان وقتئذ سلطاناً على مصر ، فأمر بإحضاره ، فوجده طفلاً جميلاً مسكيناً ، فاهتزت عاطفة الأبوة والرحمة في قلبه ، فكلف بطانته بالعناية بتربيته في قصره تربية حسنة ، والاهتمام برعايته حتى يشب رجلاً نافعاً . . . وقد سماه : « أحمد اليتيم » .

عاش « أحمد اليتيم » في قصر ابن طولون محفوظاً بكل وسائل العناية والرعاية ، وقد تربي في بلاطه تربية راقية ، وتهذب تهذيباً حسناً حتى أصبح شاباً مرموقاً بين رجال السلطان ، محبوباً عنده ، لما كان عليه من أخلاق كريمة ، وآداب عالية ، وذكاء وإخلاص عميق ، حتى فضله على كثير من خاصته وكبار رجال دولته !

ولما حضرت الوفاة السلطان أحمد بن طولون أوصى ابنه « خمارويه » بأحمد اليتيم خيراً ، وطلب منه أن يزداد في الإحسان إليه ، وأن يديم رعايته له ، وينزله عنده على الدوام منزلة كريمة ، وكان خمارويه يعرف إخلاص « أحمد » ويحبه ويقدمه على الكثيرين ، فاستجاب لوصية والده ، ووعد بالقيام بعده بما يحب ويرضى . . . !!

* * *

توفي السلطان ابن طولون بعد هذه الوصية ببضعة أيام ، وتولى خمارويه عرش مصر . . . فكان أول ما اتجهت إليه نفسه تنفيذ وصية أبيه برأ بما وعده به ، فأرسل إلى « أحمد اليتيم » يستدعيه إلى مجلسه ، فضى على الأثر إجابة لأمر مولاه الجديد ، فلما مثل بين يديه ، قال له خمارويه : يا أحمد أنت عندي بمنزلة قريبة ، أركانك فيها كل الرعاية ،

ولكن عادنى أن آخذ العهد على كل رجل من رجالى ألا يخوننى ، فاحلف على عهدى ألا تخون !

فحلف أحمد اليتيم كما أمر مولاه ، وعاهده على الأمانة والإخلاص . وبذلك اطمأن إليه خارويه ، وأقامه على شئونه الخاصة ، وجعله متصرفاً فى بعض أمواله ، وصاحب الكلمة النافذة فى بطانته ، فقام أحمد اليتيم بوظيفته أحسن قيام ، فزاد ذلك من محبة خارويه له ، واعتماده عليه فى أعماله . . . !

وذات ليلة كان السلطان خمارويه فى مجلسه يتحدث مع بعض رجاله ، ويسمر معهم على عادته فى قصره . وكان يمسك فى سمره بسبحة من الكهرمان يحركها بأصابعه كلما نشط به الحديث . وبينما هو فى هذا المجلس إذ نظر ، فلم يجد سبحته بيده ، فتفقدتها حوله ، ثم تذكر أنه نسيها فى إحدى غرف القصر الداخلية ، فأمر « أحمد اليتيم » أن يذهب إلى تلك الحجرة ليحملها إليه ، فهض أحمد مسرعاً إلى الغرفة . . . كما أمر سيده السلطان . . .

سار أحمد متجهاً إلى الغرفة ، فمر بغرفة أخرى ، فلمح على ضوءها شبحين يتغازلان ، فخرج عليها ، واقتحم الباب ، فوجد إحدى جوارى السلطان بين يدي شاب من الخدم ، فلما رآياه أسرع الخادم بالهرب ، وألقت الجارية وجهها على قدمي أحمد تتوسل إليه ألا يفضح أمرها لدى السلطان ، وعرضت نفسها عليه ثمناً لذلك ، فأجاب أحمد :

معاذ الله أن أخون مولاي ، وقد آخذ العهد على ، وأحسن إلى ا . . ثم تركها ، وسار إلى الغرفة ، فحمل السبحة وانصرف إلى الأمير ، وقدمها إليه . . ورأى ألا ينغص عليه مجلسه ، ولا يحزنه بخبر هذه الجارية الخائنة ا . . .

* * *

بقيت هذه الجارية المغامرة بعد هذه الحادثة غير مطمئة ، لا يهنأ لها

عيش ، ولا يطيب لها مضجع ، وصارت تتوجس الشر ، وتخشى من أحمد أن يبلغ السلطان ما اقترفته من خيانة في يوم من الأيام .

وحدث في ذلك الحين أن السلطان خمارويه اشترى جارية بارعة الجمال ، فتن بها كثيراً ، وآثرها على حظاياها بحبه وإحسانه ، واشتغل بها عن سواها حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، بعد أن كان مشغولاً بتلك الجارية الخائنة شغفاً كبيراً .

فلما أعرض السلطان عنها هيناً بالجارية الجديدة ، كبر ذلك عندها وأيقنت أن « أحمد اليتيم » إن لم يكن فضحها عنده ، فقد دس لها ، وصرفه عنها إلى هذه الجارية الجديدة التي كان لأحمد دور كبير في تقديمها إلى السلطان ، وفي إغرائه بشرائها . فقد كان هو الذي بعث رجاله ليستقدموا جارية جميلة يهديها إلى مولاه ، وهو الذي اختارها له من عدد الجوارى الحسان . . !

واشتد لذلك غيظ الجارية الخائنة المغامرة على أحمد ، فصممت على الانتقام ودبرت لأحمد مكيدة تقضي عليه ، ويذهب هو ضحيتها ، حتى تشفى حقدها ، وتطمئن على حياتها في قصر السلطان . . فماذا تصنع ؟ !

دخلت ذات يوم على خمارويه ، وهي تبكي بكاء شديداً دهش له السلطان ، وسألها عن سبب بكائها ، فأفضت إليه بأن أحمد اليتيم راودها عن نفسها ، وألح عليها في طلب الفاحشة ، وهددها بتدبير مؤامرة ضدها عند السلطان تسوقها إلى الموت ! ! ! . . .

استشاط خمارويه غضباً حين سمع منها ما سمع وكانت أثيرة عنده ، ولها مكانتها في قلبه ، فصمم على قتل أحمد بجيلة من حيل الملوك والسلاطين ، فاستحضر أحد بطانته ، وأسر إليه قائلاً :

إذ أرسلت إليك إنساناً ، ومعه طبق من الذهب ، وقال لك : املأ هذا الطبق مسكاً ، فاقتله ، وضع رأسه في الطبق ، وأرسله إلى مغطى !



دبر خمارويه هذا العقاب لأحمد جزاء خيانتة التي زعمتها الجارية ،
وأحضر ندماءه في سمره ذات ليلة ، وجلس معهم ، وأحمد اليتيم واقف
بين يديه ، ولم يدر من الأمر شيئاً . . وبينما هو كذلك . . إذ ناداه
خمارويه قائلاً :

يا أحمد ، خذ هذا الطبق ، وامض به إلى « فلان » وقل له :
يقول لك السلطان املاً هذا الطبق مسكاً . . .

وصدع « أحمد اليتيم » بأمر مولاه ، وأخذ في الذهاب إلى ذلك
الشخص الذي عينه خمارويه . وبينما كان يسير في طريقه إليه ، مر
بطائفة من أصدقائه المغنين والندماء في القصر فسألوه الجلوس معهم وألحوا
عليه ، فأجاب : « أنا ماض إلى فلان في حاجة للسلطان ، أمرني بإحضارها
في هذا الطبق » فقالوا له : « أرسل من ينوب عنك في إحضارها ، واجلس
معنا ريثما يأتي بها . . ثم تأخذها أنت منه لتحملها إلى السلطان » !

وافق أحمد اليتيم على هذا الرأي ، ودعا أحد الخدم الحاضرين ليقوم
بالذهاب إلى ذلك الشخص ليحضر المسك ، فأسرع إلى تلبيته ذلك
الخدام الخائن الذي وجده أحمد مع الجارية في الغرفة ، وتناول الطبق
منه وذهب به !

* * *

جلس أحمد بين الندماء في انتظار المسك . . وحمل الخادم الطبق
إلى ذلك الشخص الذي أوعز إليه السلطان بأن يقطع رأس حامله . . فلما
وصل إليه وطلب منه أن يملأ الطبق مسكاً ، قبض عليه ، وضرب عنقه ،
ثم وضع رأسه في الطبق ، وغطاه وأرسل به إلى خمارويه مع أحد خدمه ،
فلما رآه أحمد في طريقه نهض من بين الندماء وتناول منه وهو لا يعلم
شيئاً عما حدث للخدام الخائن ، وذهب بالطبق إلى السلطان .
فلما رأى خمارويه أحمد مقبلاً بالطبق دهش ، ثم كشف الطبق ،

فازدادت دهشته ، ودهش أحمد أيضاً مما رأى ، فسأله السلطان :
— ما هذا ؟ . . وكيف حدث ذلك ؟ !

فقص عليه أحمد قصة تخلفه مع الندماء في طريقه لإحضار المسك ،
وما كان من إرسال الطبق مع هذا الخادم . فقال له السلطان :
— أتعرف لهذا الخادم خبراً يستوجب به ما جرى له بيد القدر ؟
فقال أحمد :

— أيها الأمير إن الذي جرى عليه كان عقاباً له من الله على ما أتاه
من خيانة مولاي . . فقد كنت أعرضت عن قصته وأردت ألا أحزنك
بخيانتة حتى لا أنقص عليك سعادتك . . !

ثم أخذ أحمد يقص على خمارويه خيانة هذا الخادم مع الجارية ،
فلما عرف السلطان القصة أمر بإحضار الجارية ، فطلب منها الاعتراف
بالحقيقة ، فاعترفت وأخذت تبكي . . ولكن السلطان أمر أحمد اليتيم
بأن يذهب بها إلى سيف الجلاد . . !

غادة السودان

قصة من صراع الحرية والاستعمار

كانت فتاة يافعة سمراء، في الثامنة عشرة من عمرها ، على جانب كبير من الملاحظة الحارة والجمال الأسمر . وكانت أمها سيدة عربية من أهالي « دارفور » الإقليم الغربي في السودان ، ونساء هذا الإقليم معروفات بالحاذية والجمال وكان تجار الرقيق يسطون على هذا الإقليم وما يجاوره من الأقاليم كإقليم بحر الغزال لسرقة البنات والأبناء أو اختطافهم للتجارة بهم في أسواق الرقيق في السودان وأواسط إفريقيا . وطالما أزعجوا عائلات كثيرة بهذه السرقات الوحشية من هذه الأقاليم ، فإذا أعوزهم الخطف أو السرقة ، احتالوا بشراء هؤلاء البنات والأبناء من عائلاتهم الفقيرة . وهم لا يراعون في ذلك أية عاطفة إنسانية ، ولم يهتم لهم إلا جمع الأموال من هذه التجارة البشرية المحرمة . . .

أما والد « حصينة » فهو اللواء محمد سعيد (باشا) من أهالي « الأبيض » عاصمة كردفان . وقد ترقى ضابطاً في الجيش المصري حتى حاز رتبة اللواء الممتازة بلقب الباشوية في ذلك الحين . وكان له زميل من أهل السودان يدعى اللواء حسن (باشا) حسين ، ربطت بينهما الزمالة والصداقة منذ الصبا ، وجمعت بينهما الحياة العسكرية في مصر والسودان . .

فلما قامت الثورة المهدية ، وانتشرت دعوة المهدي في معظم الأقاليم السودانية سنة ١٨٨٤ كان « اللواء محمد سعيد » على رأس فرقة مصرية سودانية تبلغ عشرة آلاف جندي تعسكر في « الأبيض » فبعث إليه المهدي يدعوه إلى التسليم ، فجمع سعيد (باشا) رجاله وشاورهم في الأمر ، فأشار عليه بعضهم بأن يقتل الرسل ، ولا يبعث بجواب إلى المهدي ، ولكن اللواء حسن حسين عارض هذا الرأي ، ووافقه اللواء محمد سعيد وسائر الضباط ، واستقر الأمر على إعادة الرسل إلى المهدي من غير جواب ، والصمود أمام جيش الدراويش .

وكانت دعوة السيد محمد أحمد المهدي قد وصلت إلى أهالي « الأبيض » سرّاً واعتنقها منهم الكثيرون ، وبعثوا إليه يدعونه لفتح إقليمهم كما فتح غيره من الأقاليم السودانية ، وقد وعدوه بمعاونة جيشه .

جاءت طلائع جيش المهدي ، وأبدى الأهالي ميولهم إلى الانضمام إلى هذا الجيش ، وأصبح اللواء محمد سعيد ، وزميله اللواء حسن حسين في حرج شديد بين واجبهما العسكري ، وواجبهما الوطني . . ولكن سرعان ما أحاط المهدي بالأبيض ، وكان جيشه يزيد على ستين ألف مقاتل ، وضرب على « الأبيض » حصاراً شديداً اضطّر معه اللواء محمد سعيد إلى التسليم ، ثم فر إلى « الفاشر » هو واللواء حسن حسين ، وأقام مع زوجته وابنته حصينة عند أهلها فترة من الزمان قبل أن تسقط الخرطوم .

اعتكف اللواء محمد سعيد بالفاشر ، وكان يقضى وقته في تدريب « حصينة » على ركوب الخيل ، والضرب بالسيف والرماية بالرمح والسهام ، ولم يكن قد رزق من زوجته غيرها ، فكان يعنى بها عناية خاصة . وكانت حصينة تجدد في ذلك لذتها الكبرى . وقد علمتها والدتها « حبيبة » القراءة والكتابة ولقنتها بعض العلوم الدينية ، فقد كانت هي تتلقى في صباها وشبابها شئون الدين وتتعلم القراءة والكتابة عن والدها « الشيخ

حسن الخير « الذى تخرج فى الأزهر ، وعاد إلى وطنه السودان يعظ الناس ويعلمهم شئون الدين ، ويفسر لهم القرآن الكريم .

• • •

فى هذا العام — عام ١٨٨٤ — الذى استفحلت فيه الثورة المهدية ، انتهر الإنجليز هذه الفرصة للقضاء على الحكم المصرى فى السودان ، وتأسيس حكومة إنجليزية استعمارية على أنقاضه ، وكانوا قد قضوا على الثورة العربية فى مصر ، ونفوا زعماءها إلى الخارج ، وسجنوا وشتتوا أنصارهم ، واحتلوا البلاد المصرية ، وسرحوا أكثر جنود الجيش المصرى ، فاستطاع هؤلاء المحتلون أن يرغموا مصر على إخلاء السودان ، وبعثت الحكومة الإنجليزية « الجنرال غوردون » إلى الخرطوم لسحب الحامية المصرية ، وإقامة حكومة إنجليزية فى السودان يمتد نفوذها إلى ساحل البحر الأحمر ، وتتصل بمستعمراتهم فى أواسط أفريقيا .

وصل الجنرال غوردون إلى القاهرة ، ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم أسرارهم ثم غادرها بعد مقابلته للسير إفلن بارنج واللورد كرومر فيما بعد ، فوصل إلى الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٨٤ . ولم تكن قد سقطت فى أيدي الدراويش .

وكان غوردون من المتوكلين على الله — كما كان يزعم . . . — فلم يصطحب جيشاً معه ، وكان يقول :

« إننى لم آت لإنقاذ السودان بجيش ، ولكنى اتكلت على الله . فلا أحارب إلا بسلاح العدل » ١ ١

وقد كان يظن أن ادعاءه العدل وتشويهه لسمعة مصر والمصريين فى السودان كافيان لبلوغ أغراضه الاستعمارية ، ولذلك ما كاد يستقر فى الخرطوم حتى جمع أعيان المدينة ، وخطب فيهم قائلاً إن مهمته هى :

« أن يخلص السودان من ظلم المصريين » ١ ١

قال غوردون ذلك وهو يعتقد في نفسه أنه كاذب مخادع ، ثم شاء إلا أن يزيد في نفاقه وكذبه وخداعه ، فجمع دفاتر الحكومة القديمة ، وفيها ديون مطلوبة من أصحاب الأفيان خراجاً على أفيانهم ، فوضع الدفاتر في ساحة عامة ، وأوقد فيها النيران ، وأنشأ مجلساً وطنياً سورياً ، وأطلق من كانوا في السجون رجالاً ونساء . . . !

وأراد أن يمالى "تجار الرقيق" ليكسب معاونتهم وتأييدهم - وهم من أغنى تجار السودان - فأصدر منشوراً بإعادة تجارة الرقيق التي ألغتها الحكومة المصرية . وقال في هذا المنشور :

« اعلّموا أن راحتكم هي غاية ما نرجوه . وبما أن إلغاء تجارة الرقيق قد ساءكم وهالككم ما وضعت الحكومة من القصاص على كل من يمارسها وغير ذلك مما صدر من الأوامر العالية بشأن تأكيد إلغاء هذه التجارة ، فقد رأيت التماساً لراحتكم أن أبطل كل تلك الأوامر ، وأمنحكم الحرية التامة ، فلا يعترضكم أحد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم . والسلام عليكم » !!

وكانت هذه التجارة من أسوأ التجارات اعتداء على الكرامة الإنسان وكرامة السودان وأهله . فقد كان التجار والمشترون يبيعون لأنفسهم أن يفحصوا أجساد الرقيق فتيات وفتياناً فحصاً دقيقاً ، وكأنهن سلع تباع وتشتري في الأسواق بالممارسة والمزاد .

• • •

هال « حصينة » ما فعله الجنرال غوردون بإعادته تجارة الرقيق ، وما يصيب بنات وطنها وأبنائه من إهدار للكرامة والإنسانية باتخاذهم سلعة في الأسواق على هذا الشكل المزرى الغريب ، وجعلت تمنى نفسها أن يتاح لها يوماً أن تخلص وطنها من هذا الذل والمهانة والاستعباد . . . !

وأقبلت على والدها اللواء محمد سعيد تتحدث إليه في غضب ونقمة وحماسة ، وتسأله عن كيفية الخلاص ، وعن يوم الخلاص ، وهل يمكن

أن يكون قريباً ، فينحدر السودان وينجو من مساوئ الاستعمار ؟ ! . .
فكان والدها يشاركها غضبها وحماستها ، ولكنه يطمئنها بأنه لا بد للحق
من أن يعلو على الباطل ، ولا بد للحرية من أن تنتصر في النهاية . . !
وكان غوردون في أول عهده بالسودان قد ظن أنه سينجح في سياسة
النفاق والخداع ، وزين له غروره أن قائد الثورة المهدي السيد محمد
أحمد المهدي ممن يؤخذون بهذا الخداع ، أو ممن يؤثرون عرض الدنيا
على الآخرة ، فأراد أن يرضيه كما أرضى تجار الرقيق على حساب
وطنهم !

وكان المهدي قد عسكر في « الأبيض » بعد الاستيلاء عليها ، فأرسل
إليه غوردون يطلب منه إطلاق سراح الأسرى ، ووعده بتوليته ولاية إنليم
كردفان ، وأرفق كتابه بخلعة نفيسة هدية للمهدي . . !

فلما دخل الرسول على السيد المهدي ، وقرأ خطاب غوردون ، ورأى
هديته ، غضب غضباً شديداً ورد الخلعة ، وقال للرسول :

« قل لصاحبك إنني لم أقم بدعوتي طمعاً في الولاية والملك . وما آتاني
الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون .

« ارجع إليهم ، فلنأتيهم بجند لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أذلة
وهم صاغرون !! »

رجع الرسول إلى الجنرال غوردون بهذا الرد ، فعظم عليه أن يجيبه
السيد المهدي بهذه اللغة الشديدة ، وأصدر منشوراً يتوعد فيه الدراويش
بالعقاب الأليم وينصحهم أن يثوبوا إلى الطاعة ، ثم بعث إلى السير
إفلى بارنج « اللورد كرومر » في مصر يقول :

إذا شئتم أن تتخلصوا من المهدي ، فأرسلوا جنداً لمقاتلته وسحق
قواته ، قبل أن تدخل الخرطوم في حوزته ، فيصعب قهره ، على أنكم

ستضطرون إلى ذلك إن عاجلاً أو آجلاً التماساً للسكينة والأمن ، وسيكون ذلك - بعد الآن - شاقاً جداً . . . !

ولكن السير إفلن تباطأ في الرد عليه ، فأرسل هو إلى حكومته يستعجلها في تجهيز حملة لمساعدته فترددت في بادئ الأمر ، ثم أجابته إلى ما يريد ، وأخذت في إعداد حملة من الجيش الإنجليزى لإنقاذه !

كان على رجال المهدي أن ينتهزوا الفرصة للاستيلاء على الخرطوم قبل أن تأتى تلك الحملة التى عرفوا أخبارها من جواسيسهم وعيونهم التى بثوها فى كل مكان ، فأخذوا بأمر السيد المهدي يحيطون بالخرطوم ، ويجمعون جيوشهم للاستيلاء عليها . . . وكانت الخرطوم هى آخر حصن للإنجليز بعد أن سقطت فى أيدي المهدي سائر أقاليم السودان . . . !

ووجد غوردون الخطر يحدق به من كل جانب ، فأمر « اللواء محمد فرج » قائد حامية الخرطوم بمضاعفة تحصينها ، ثم استدعى من الفاشر اللواء محمد سعيد والد حصينة ، وزميله اللواء حسن حسين ، فحضرا إلى الخرطوم ، فكلفهما بقيادة حملة من ألئى رجل إلى حلفاية لصدد جيش الدراويش ؛ فترددا فى قبول هذه المهمة التى يضطران فيها إلى محاربة أبناء وطنهما ، ثم رفضا أن يقوما بما أمرهما به « الجنرال غوردون » فهددتهما بالقتل ، فوافقا وتظاهرا بالطاعة . وذهبت الحملة بقيادتهما . ثم ما لبثا أن عادا بالفشل فاتهم الجنرال غوردون كلا من اللواءين محمد سعيد ، وحسن حسين بالخيانة ، والميل إلى أبناء وطنهما الدراويش وحاكمهما محاكمة عسكرية بالخرطوم ، وحكم عليهما بالإعدام ونفذ الحكم فيهما أمام الجماهير رمياً بالرصاص . . . !

. . .

كان لإعدام هذين الضابطين السودانيين على هذه الصورة الوحشية أثر مؤلم فى نفوس السودانيين . وقد زادت هذه المأساة من ضعف غوردون ،

وازدیاد قوة المهدي وأنصاره في أنحاء السودان .
 وكانت « حصينة » وأمها وقتئذ في مدينة الفاشر ، فاما علمت بمقتل
 والدها هاجرت مع أمها إلى مدينة « بربر » بشمال السودان الشرقي ، وكان
 الدراويش قد استولوا عليها . وتولى أمرها خالها « الأمير محمد الخير »
 أحد قواد المهدي . وكان سقوط بربر ضربة شديدة على غوردون بالخرطوم
 لأنها كانت واسطة الاتصال بينه وبين مصر ، وأدرك غوردون أنه في
 مركز خطير . . . !

وكان الأمير محمد الخير - خال حصينة - قد تلقى أمراً من المهدي
 بالحضور لحصار الخرطوم مع سائر القواد والجيش الذين استدعاهم
 لهذه المهمة الكبرى ، فسار على رأس جيش من ستة آلاف فارس يتبعهم
 « فارس ملثم » ما لبث أن اختفى عن الأنظار حين عسكروا بالقرب من
 الخرطوم

وكانت مدينة الخرطوم محصنة تحصيناً طبيعياً ، وهناك التحصين
 العسكري في الشرق وسائر الأنحاء بقيادة اللواء محمد فرج .

ورأى السيد المهدي أن يأخذ الخرطوم بالحصار الشديد حتى تسلم
 كما فعل في « الأبيض » واستمر محاصراً لها حتى اشتدت الأزمة بغوردون
 وضاق السكان ونفذت النقود من خزينة الحكومة .

وازداد اضطراب الحال بالعاصمة السودانية ، ولم يملك غوردون
 إلا أن يصبر الناس ويمنهم بالحملة العسكرية المنتظرة ، واستطاعت
 « حصينة » وسط هذا الاضطراب أن تدخل المدينة ، وأن تشيع إشاعات
 الذعر بين السكان . وفي الوقت نفسه كانت على صلة بالدراويش ،
 وكان يعاونها في مهمتها « حسيب الجاني » وهو سوداني كان يعمل جاسوساً
 لغوردون على الدراويش ، ولكنه في الحقيقة كان جاسوساً بارعاً للمهدي !
 وفي مساء ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ قطع المهدي النيل الأبيض من

أم درمان ، ومعه كبار رجاله وبطانته ، ونزل إلى معسكر « ولد النجومى » فى بلدة « كلاكلا » وألقى هناك خطاباً حث فيه الناس على الجهاد ، وأوصاهم ألا يقتلوا غوردون (باشا) ، وكان يريد من بقائه أسيراً عنده بعد فتح الخرطوم أن يفتدى به الزعيم المصرى « أحمد عرابى » الذى نفاه الإنجليز فى سيلان . . !

وفى صباح اليوم التالى زحف الدراويش لمهاجمة الخرطوم ، وانقسموا فريقين : فرقة تفتح سورها من النيل الأبيض ، وفرقة تهاجمها من ناحية « بورى » . وكان الجميع تحت قيادة « ولد النجومى » فباغتوا حاميتها ليلاً ، فما انتبه اللواء محمد فرج قائد هذه الحامية إلا وقد قضى الأمر وانهاى الدراويش على المدينة كالصواعق ، وفى مقدمتهم فارس ملثم ، كان يخوض المعركة بجواده فى شجاعة وقوة شامراً سيفه وهو يصيح :

إلى السراى . . إلى السراى . . إلى القتال . . إلى الكافر . . !

ولم يكن هذا الفارس الملثم إلا « حصينة الحسناء » التى شاءت إلا أن تقتص من غوردون الذى قتل أباهما ، واستبد بوطنها ، وأهدر كرامته ، وأعاد تجارة الرقيق ، وأراد أن يذل السودان والسودانيين بالسيف والنار . . ! وكان غوردون قد يش من وصول الحملة الإنجليزية فى الوقت المناسب ، وفوجئ ليلاً بإطلاق النار فى أنحاء المدينة ، فصعد إلى سطح السراى ، فرأى الدراويش يتدفقون كالسيل العرم ، وسمع فارساً بين الفرسان الهائجة يقول :

— إلى السراى . . إلى السراى . . اقتلوه . . اقتلوه ، فقد قتل أبى ، وأهدر كرامة السودان وكرامة المرأة السودانية . .

وسرعان ما اقتحم ثلاثة من الدراويش سراى غوردون بحراهم الطويلة ، وسيوفهم القاطعة ، وصعدوا إلى أعلى السلم . وكان غوردون قد لبس ثيابه ، وتملك سلاحه ونهياً للنزول ، فلما فاجأه الدراويش بالصعود إليه ، قال لهم :

أين سيدكم المهدي ؟

ولعله كان يريد أن يستسلم إليه . ولكن هؤلاء المحاربين كانوا في ثورة
حربية عارمة ، وقد امتلأت نفوسهم بالنقمة على الاستعمار والاستبداد ،
ودوى في آذانهم صوت حصينة : « . . . اقتلوه . . . اقتلوه . . . فقد قتل أبي
وأهدر كرامة السودان . . » !

ولذلك ما كاد غوردون يتم هذا السؤال حتى أجابه أحدهم بطعنة
رمح في صدره ، وأجابه الثاني بضربة سيف جعلته صريعاً ، وأسرع
الثالث ففقطع رأسه ، وخرج به إلى زملائه رافعاً إياه فوق سيفه ، فهتف
الفارس الملمم :

ليحي السودان . . اليوم يهنأ السودان . . فقد انتصرت الحرية على
الاستعمار الذي استبد بأبنائه وأهدر كرامته حقبة من الزمان !

هند

كانت من بيت عريق من بيوتات العرب وكانت أجمل لداتها جسماً وأكثرهن أدباً وذكاء ، وكانت ذات دراية واسعة وبديهة حاضرة تنظم الشعر وترتجله ارتجالاً . وقد اشتهرت بين عائلات « أم القرى » بفصاحتها وسحر حديثها وسمو محتدها وشرف نسبها . وكان والدها « النعمان » من أهل « الطائف » وكبار سراته . وقد ولدت « هند » في هذه المدينة الجميلة المحيية إلى قاوب أهل الحجاز لطيب هوائها وكثرة فاكهتها وبرودة مناخها في فصل الصيف ، فهي مصيف عربي مشهور يهرع إليه السكان في الصيف هرباً من الحر الشديد !

ولدت « هند » في هذه المدينة ، ولكن والدها نزل بها مع أسرته « مكة » وهي طفلة صغيرة فنشأت في « أم القرى » بجوار المسجد الحرام وفي بيئة العلم والأدب والدين ، فتربت تربية حسنة ونهلت من المعارف الدينية والآثار الأدبية ما وسع مداركها وقوم لسانها ، وغذى موهبتها الأدبية ، فكانت تقول الشعر وتنطق النثر كأحسن ما تنطق به فتاة عربية مهذبة في عهد « عبد الملك بن مروان » .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي شاباً من أهل الطائف يشتغل بالتعليم في أول حياته فعرف ما لهند من الذكاء والموهبة الأدبية ، وكان فصيحاً يميل إلى الأدب ، ولكنه كان محارباً ذا طموح سياسي ، فترك الطائف والحجاز وهو فتى يافع ليبلو حظه في السياسة مع المروانيين في الشام ،

وانضم إلى « عبد الملك بن مروان » في قتاله لمصعب بن الزبير في العراق ، فلمع اسمه في هذا القتال الذي انهزم فيه « مصعب » وقتل شرقتلة واستولى « عبد الملك » على العراق فتقرب الحجاج وآثره بين قواده . ثم كلفه بالرحيل إلى « الحجاز » على رأس جيش كبير لانتزاعه من يد « عبد الله بن الزبير » .

فخرج الحجاج إلى « الطائف » وعسكر فيه حتى نظم قواده وجنوده واستكمل أحبته ثم تقدم صوب « مكة » فلقى دفاعاً شديداً من جيش « ابن الزبير » فحاصره عدة أشهر ، فلم يسلم ، فرمى « أم القرى » بالمنجنيق من جبل أبي قبيس حتى استولى عليها ، وكافأه عبد الملك فولاه على البلاد التي فتحها ثم على المدينة واليمن والباقية ثم على العراق لمحاربة الخوارج الذين اشتد وقتلهم في البلاد العراقية !

كانت « هند » أثناء هذه الحرب بعيدة عن الفريقين المتحاربين ، وكان والدها من رجال الدين والتجار الذين لا ينغمسون في السياسة ولا يتعصبون لأحد من الفريقين ولا يتشيعون للعلويين أو المروانيين .

فلما استتب الأمر للحجاج بن يوسف بعد انتصاره على ابن الزبير سمع في أحد مجالسه بنجر هند بنت النعمان وما هي عليه من جمال وأدب وفصاحة ، فرغب في الزواج بها . ولكن كيف يحقق ما يريد وأهل مكة ناظمون عليه جميعاً لرميه مدينتهم المقدسة بالمنجنيق وذبحه الكثيرين من أنصار ابن الزبير ؟ !

كيف ترضى به « هند » زوجاً وقد انتهك حرمة الدين وهدم الكعبة ودمر المسجد الحرام وهي الفتاة العربية المسلمة المتدينة ؟

لذلك حرص الحجاج على أن يبدأ بإصلاح الكعبة وبناء ما تهدم من المسجد ومن مكة المكرمة حتى عادت إلى ما كانت عليه وأراد أن

يخطب « هنداً » من أبيها ، ولكن عبد الملك بن مروان أمره أن يسافر على رأس جيشه إلى العراق للقضاء على فتنة الخوارج التي مزقت أوصال العراق فذهب إلى « الكوفة » وارتقى منبرها وأتى خطبته المشهورة التي أعلن فيها سياسته وتوعده وهدد واستطاع مع قائده المهلب بن أبي صفرة أن يقضى على الفتنة !

وما كاد الحجاج يهدأ من الحرب ويستتب له الأمر في العراق حتى أرسل إلى « النعمان » بمكة يطلب الزواج من ابنته « هند » فلما بلغها هذا الطلب ارتاعت ورفضت رفضاً شديداً لأنها لا تريد أن تعيش مع « هادم الكعبة » ومخرب بيت الله الحرام !

ماذا يفعل « النعمان » وقد خشي انتقام هذا الحاكم المستبد الجبار الذي أرسل إليه رسوله يأمره بالسفر فوراً إلى « الكوفة » ليخطب ابنته فجعل يتوسل إليها ألا ترفض طلب الحجاج ، ولكنها كانت تأبى وتصر على الإباء والرفض ، فساءت حال « النعمان » وبلغ به الخوف من الحجاج مبلغه . فلما وجدت « هند » ذلك أشفقت على والدها واستجابت لرغبته وأبلغته موافقتها على ما يطلب الحجاج !

* * *

سافر النعمان وقابل الحاكم الجبار بالكوفة فلقى منه ما أدهشه فقد قام له من مجلسه منتفضاً لمقابلته وحياء تحية بالغة الاحترام والتكريم ، ثم أجلسه بجانبه فكانت مفاجأة غريبة للنعمان إذ كان يعلم من جبروت الحجاج وصلفه ما هو مشهور عند جميع العرب ، فلما اطمأن في مجلسه وانشرح صدره أطلعه الحجاج على رغبته في خطبة هند ابنته ، فلم يسعه إلا الترحيب واتفق معه على الزواج ، وبذل له الحجاج مالا جزيلاً وشرط على نفسه إن هو طلقها أن يدفع لها مائتي ألف درهم . . .

عاد « النعمان » إلى مكة وأخبر ابنته بما حدث فاضطرت إلى الإذعان

لرغبة أبيها حتى لا يصيبه سوء من هذا الجبار العنيد !
مكث الحجاج ينتظر لقاء هند وزفافها إليه فقد أغرم بها غراماً شديداً
منذ سمع عن جمالها وأدبها وفتنتها وكان في خلوته قبل حضورها إلى الكوفة
يردد قول الشاعر :

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة وإنما العاجز من لا يستبد

وجاء يوم رحيل « هند » من مكة إلى الكوفة للزفاف إلى الحجاج
فبكت بكاء شديداً واجتمع عندها من فتيات مكة لداها وصديقاتها
يشجعنها ويسلينها ولكنها كانت تشعر في نفسها بكراهية هذا الجبار .
وكانت غير راغبة في الزواج به لولا دافع الخوف على والدها الذي تحبه
وتؤثره وتضحى في سبيل أمنه وراحته بسعادتها وراحتها .

رحلت مع والدها وبعض أهلها إلى « الكوفة » وزفت للحجاج بن
يوسف وأصبحت زوجة أمير العراق وخراسان وشرق بلاد العرب كله بما
حصل عليه من انتصارات ، ونجح فيه من حروب .

ولكن هل هذا الزواج قد أرضى نفسها الغاضبة وأراح قلبها المعذب ؟
كلا .. لأنها تكره الحجاج ، تكره هادم الكعبة ، تكره الحاكم الجبار
المستبد ، لا تعتبر المستبد عظيماً أو عبقرياً ، وإنما تعتبره متسلطاً جباراً
أو بغلاً من البغال الأقوياء . . .

كذا كانت تعتقد وكذلك كانت تقول . . . ففي ذات يوم كانت
هند واقفة تزدان أمام المرأة فدخل عليها الحجاج في تلك الساعة دون أن
تشعر بدخوله فسمعها تقول :

وما هند إلا مهرة عربية ؛ سليمة أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فحلا فله درها إن وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

فانصرف البغل مغضباً ولم يخاطبها بكلمة واحدة ثم دعا قاضي المدينة

وأعطاه مائتي ألف درهم وأمره أن يذهب إلى هند فيسلمها إياها ويعلن لها طلاقها قائلاً : يقول لك الحجاج : « كنت فبت » . . !
فذهب الرجل إليها وأعلنها بالطلاق البائن وقدم لها المبلغ فابتسمت وقالت :

— هذا المبلغ لك بشارة بخلاصى من كلب بنى ثقيف !!

* * *

بانت هند عن الحجاج وانتقلت إلى بيت أبيها وذاع نبأ طلاقها من هذا الحاكم الجبار وأخذ الناس يتحدثون في أمره ويعجبون كيف أن الحجاج على قسوة قلبه وشدة بأسه لم يقو على أن ينتقم من تلك الفتاة التي أهانته وجعلته بغلاً من البغال على مسمع منه .

فأرقت « هند » الحجاج وسلمت من انتقامه ولكنها أرادت أن تنتقم منه وتذل نفسه ، فقد كانت نفسها تغلى حقداً عليه منذ هدم الكعبة وسفك دماء المسلمين في البلد الحرام وبقيت تنهز الفرصة حتى أتيت لها وكان لها ما أرادت . . !

ذلك أنه بينما كان « عبد الملك بن مروان » جالساً ذات يوم مع بعض خاصة ملكه إذ بلغه خبر « هند » وما هي عليه من جمال وفطنة وأدب بارع وسحر رائع فرغب عبد الملك في الزواج بها ، فأرسل إليها من يخطبها لنفسه . فلما جاءها رسول أمير المؤمنين تناولت القلم وكتبت له كتاباً تعتذر فيه عن الزواج . فلما وصل الكتاب رد رسوله إليها يلح في زواجها فلم يسعها إلا قبول رغبته ثم كتبت له تخبره بقبولها ، ولكنها شرطت عليه أن يسير القواد والأمراء في موكب زفافها إلى الملك . وفي مقدمتهم أكبر ولاته وأمراء دولته « الحجاج بن يوسف » !

وافق عبد الملك على هذا الشرط وبعث إلى أمير العراق يدعوه لحضور « زفاف هند » كما دعا الأمراء والقواد .

وفي يوم الزفاف تقدم الموكب رجال الدولة . وبعث أمير المؤمنين إلى الحجاج باعتباره أكبر قواده وأمراء دولته يأمره أن يقود «جمل هند» فصاع لأمره وتحقيقاً لرغبة ملك بني أمية، فركبت وركب حولها جواريتها ووصيفاتها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير مع الجميع !

وفي أثناء الطريق جعلت « هند » تتواغد على الحجاج في همس وهو منصت سامع ثم ضحكت فاغتاظ غيظاً شديداً حتى كاد يفلت زمام البعير من يده ولكنه كظم غيظه خوفاً من عبد الملك ! ولما اقتربت من القصر رمت بدينار على الأرض ونادت من وراء الستر :

— يا جمال . . سقط منا درهم ، فارفعه إلينا .

فنظر الحجاج قلم يجد غيره يقود البعير ، والتفت إلى الأرض فلم يجد إلا ديناراً . فقال لها في همس :

— إنما هو دينار لا درهم . . !

فالت هند :

— بل هو درهم . . !

فقال الحجاج :

— بل هو دينار . . !

قالت هند ضاحكة :

— الحمد لله . . سقط منا درهم فيعوضنا الله منه ديناراً . .

فخجل الحجاج . وانصرف بعد الزفاف كئيباً مغيظاً . . !

أوجيني

الإمبراطورة اللعوب التي ضيعت العرش

« لا تضيعي الوقت سدى فقد دخل الثائرون القصر الإمبراطورى
وحان وقت الهرب » . . . !!

فأجابت الإمبراطورة أوجيني سفير إيطاليا السنيور نيجرا فى هدوء
وتجلد وهى تكبت شعورها بالحزن والأسى :
— إذن ، لنودع أصدقاءنا قبل الرحيل !

ودخلت الإمبراطورة غرفة الاستقبال ، وهى تتكلف الابتسام وشرعت
فى توديع الحاضرين ، غير أن البرنس مترنيخ سفير النمسا أسرع إليها ،
ودفع بها إلى الباب لتخرج دون أن تودع باقى الحاضرين ، ثم أغلقه
وراءها فى عنف وإذلال . وكانت هناك عربة فى انتظارها فاستقلتها
وأسدلت نقاباً على وجهها حتى لا يراها أحد ، ولما بلغت الشاطئ أبحرت
على ظهر اليخت المعد لها ، وذهبت هاربة إلى إنجلترا . .

وكان زوجها الإمبراطور نابليون الثالث قد هزم فى الحرب البروسية
عدة هزائم انتهت بأسره وبمحاصر باريس سنة ١٨٧٠ م .

وقد عزا بعض المؤرخين هذه الهزائم إلى « أوجيني » التى كانت بمثابة
المستشار لهذا الإمبراطور فى سياسته الداخلية والخارجية ، فقد كانت
هذه الحسنة الفاتنة امرأة قوية الشخصية مغامرة ، لا تشير على زوجها

الإمبراطور إلا بسلوك أصعب الطرق . وقد تولت الحكم نيابة عن زوجها في ثلاث مناسبات غاب فيها الإمبراطور عن العاصمة الفرنسية في الأعوام ١٨٥٩ و ١٨٦٥ و ١٨٧٠ لأن الإمبراطور نابليون الثالث كان مفتوناً بها وبما كانت عليه من فطنة وذكاء ، وكان تأثيرها عليه شديداً أدى إلى خضوعه لمشورتها في المسائل الكبرى ، وذلك على الرغم من أنها لم تكن فرنسية الأصل ، فقد كان اسمها « ماري أوجيني أجناس أوجستين دي مونتنجو » ابنة « دون سبريانو جوزمان » كونت تيبا ، وقد ولدت في مدينة غرناطة الإسبانية عام ١٨٢٦ ، وكانت أمها ابنة « وليام كيركباتريك » القنصل الأمريكي في مدينة ملقا وهو أسكتلندي الأصل ولكنه استوطن أمريكا وتجنس بالجنسية الأمريكية .

قضت « أوجيني » عهد الطفولة في إسبانيا ، ثم انتقلت مع أمها وأختها إلى فرنسا في الثامنة من عمرها ، وتلقت علومها في المدارس الفرنسية ، وتعلمت عدة لغات هي : الإسبانية لغة أبيها ، والإنجليزية لغة أمها ، والفرنسية لغة البلد الذي هاجرت إليه .

وفي شهر نوفمبر عام ١٨٥٢ دعيت « أوجيني » هي وأمها إلى حفلة في مدينة فونتينبلو ، ظهرت فيها أوجيني كفارسة حسناء تحسن ركوب الخيل ، ففتن جمالها قلوب الحاضرين . وفي مقدمتهم الإمبراطور نابليون الذي كان يرأس الحفلة ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، وأخذ هذا الإعجاب يتطور حتى استحال إلى حب جارف عنيف أدى إلى زواجه بها في يناير عام ١٨٥٣ ، وأقيمت لها حفلة زفاف كبرى في كنيسة نوتردام لم تشهد فرنسا حفلة مثلها في أبهرها وفخامتها ومشاهدها الرائعة . ولما انتهى الاحتفال ، صحبها نابليون الثالث إلى قصر التويلري .

وقد تضاربت مشاعر أفراد الشعب الفرنسي بإزاء هذا الزواج ، فالبعض قد حبه ، لأن الإمبراطور تزوج المرأة التي أحبها ، وهي إن لم

تكن فرنسية ، فهي سليلة أسرة كريمة المحدث . وكان البعض الآخر يعترض على هذا الزواج ، ويرى أنه كان على الإمبراطور أن يختار زوجاً سياسياً يقوى به مركز فرنسا ، كما كان العهد قديماً بين ملوك أوروبا . . . !

وعلى الرغم من اعتراض المعارضين ، فقد شاء التاريخ أن تجلس الفتاة الحسنة أوجيني إلى جانب نابليون الثالث على عرش فرنسا الإمبراطوري ، تسيطر على الإمبراطور وعلى من حوله بجمالها الفتان ، وشخصيتها الجذابة ، وفطنتها الخلابة ، وعباراتها العذبة ، وحديثها الشائق ، ورأيها المهييب !

وقد استطاعت أن تجعل نابليون الثالث يمحو ما كان بين إنجلترا وفرنسا من عدااء قديم بالتحالف بين الدولتين . ولكي توطد هذا التحالف سافرت مع زوجها الإمبراطور إلى إنجلترا لزيارة الملكة فيكتوريا في قصرها بلندن ، فاستقبلتهما ملكة إنجلترا وزوجها ألبرت استقبالا حافلا وأقامت لهما عدة حفلات باهرة ، وبعد مدة وجيزة ردت الملكة فيكتوريا وزوجها الزيارة للعاهلين الفرنسيين . وكان لهذه المودة التي وطدت أوجيني مع الملكة فيكتوريا أثرها فيما بعد حين لقيت محنتها في الحرب السبعينية مع زوجها ، فقد عطف عليها فيكتوريا واستضافتها في بلادها ، وخلعت عليها كل وسائل الاحترام والتكريم .

وفي ١٦ مارس عام ١٨٥٦ وضعت أوجيني ابناً أطلق عليه لقب « الأمير الإمبراطوري » كما أطلق عليه لقب « ابن فرنسا » . ولقد كانت « أوجيني » نموذجاً رائعاً تقتدى بأناقتها وأبهتها نساء أوروبا . . . !

وعلى الرغم مما كانت تعيش فيه من أبهة وملك عريض ، وما كان لشخصيتها من تأثير في الخاصة والعامة ، فقد كان للإمبراطورية الفرنسية الثانية خصوم يريدون القضاء عليها وعلى عاهليها . وقد حدث أنها وزوجها

كانا يمتطيان مركبة تنطلق بهما إلى دار الأوبرا الإيطالية في أوائل يناير عام ١٨٥٦ فألقيت عليهما ثلاث قنابل أريد بها اغتيالهما، انفجرت تحت العجلات ، وذهبت بأرواح بعض أفراد الحاشية ولم يصابا بأذى . وقد قال الإمبراطور في كلمة ألقاها في البرلمان الفرنسي :

« أشكر الله الذى منح الإمبراطورة ومنحني حمايته ورعايته ، وإني لحزين جداً لأن مؤامرة أريد بها اغتيال حياة اثنين أفضت إلى الذهاب بأرواح كثيرة » .

• • •

وكان عام ١٨٦٩ م ، فدعى الإمبراطور نابليون الثالث والإمبراطورة أوجينى إلى حفلة افتتاح قناة السويس ، في ١٦ نوفمبر من تلك السنة كما دعى كثير من ملاك أوروبا وأمرائها إلى هذه الحفلة ، فلبت الإمبراطورة الدعوة وتخلف الإمبراطور فلم يحضر الاحتفال .

وكانت الإمبراطورة أوجينى تواقه أن ترى مصر ، وترى قناة السويس ، وأن ترى ذلك الرجل الذى اشتهر بالبذخ والإسراف حتى أصبحت بلاده غارقة فى الديون ، والذى عرف عنه أنه بجائة عن متعه وملاذه أينما كانت ، وكيف كانت العواقب .

من أجل هذا رحلت الإمبراطورة أوجينى قبل موعد الاحتفال بثلاثة أسابيع فوصلت القاهرة فى الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر عام ١٨٦٩ م . وبادر الحديو إسماعيل فاحتفل باستقبالها الاحتفال الذى أراد به أن يحدث أثره الأول فى نفسها ، وأنزلها فى قصر الجزيرة ، وحاطها بكل ضروب المتعة التى تصبو إليها كل نفس ، وقام بشئون ضيافتها بصورة فاقت كل ما ألفه الملوك وأعاضم العواهل فى العالم .

وكان قد سبق أن قيل له إنه لا بد لها من زيارة الأهرام وأبى الهول ، وإن الطريق لذلك الأثر الفرعونى العظيم غير ممهد . فأصدر أمره بتمهيده

وجعله صالحاً لسير المركبات وزراعة الأغراس الوارفة الظلال على الجانين ، وما كان أسرع وزير الأشغال ومدير الحيزة إلى إصدار أوامرها بتسخير عدد كبير من الأهالى الذين دأبوا على العمل ليلاً ونهاراً حتى تم تمهيد هذا الطريق الطويل فى أقل من ستة أسابيع ، وغرست الأشجار على الجانين فأظلته وجعلته من أجمل الطرقات !

ومع أن « أوجينى » كانت فى ذلك الوقت فى الثالثة والأربعين من عمرها ، إلا أنها كانت لا تنفك ساحرة الجمال ، خلاصة الحسن ، رائعة القوام ، كأنها لا تزال فى عقدها الثالث ، ففتن إسماعيل بحسن دها ، وسحر لحاظها ، وفتنة جمالها ، وهو الرجل المفتون دائماً بكل امرأة جميلة ، كائنة من كانت ، يسيبه الجمال ، ويسحره الحسن والرشاقة ، فلازمها إسماعيل ، وأغرم بها غراماً ، وأعد لها كل أسباب المتعة والراحة ، وأحاطها بحفاوته ورعايته ، وأقام لها معالم الابتهاج وأسباب الأبهة والفخامة التى تأخذ بابها وتسحرها ، حتى أصبحت أوجينى نشوانة بتلك المظاهر التى لم ترها ولم تحلم بها .

• • •

وبعد أن قضت أسبوعاً فى القاهرة ، أعدت لها العدة لرحلة ليلية إلى صعيد مصر لرؤية آثار الفراعنة فى الأقصر وأسوان ، ورافقها إسماعيل فى تلك الرحلة ، وكانت رحلة حافلة بكل ضروب الترف والمسرات .

ووقفت أوجينى أمام تلك الآثار الخالدة ، وراحت تنزو إليها بأنظارها وخيالها يسبح فى أجواز الفضاء ، وتتخيل ما كانت عليه ملكات الفراعنة من أبهة وعظمة ، وما نعمن به من متع الحياة .

وعادت الضيفة الجميلة ، والمضيف من هذه الرحلة الممتعة ، ولما وصلا إلى القاهرة بادر إسماعيل بالرحيل إلى الإسكندرية ، واستقل بخته

المحروسة إلى بورسعيد ليكون في استقبال ضيوفه من الملوك والأمراء ، وكان أول الوافدين منهم أمير هولندا وأميرتها ، ثم إمبراطور النمسا والمجر ، ثم البرنس فردريك وفلم وى عهد بروسيا ، وفى يوم ١٦ نوفمبر أقيمت السفينة « إيجل » - النسر - تحمل الإمبراطورة الحسنة أوجينى رئيسة الاحتفال - يحف بها النبلاء والنبيلات والوصيفات .

وأعد لها إسماعيل مظاهرة ضخمة عظيمة لاستقبالها ، فتمعن على الأرصفة فى نظام بديع ضباط الجيش وأركان الحرب ، ورجال الموسيقى وجماهير غفيرة من الأهالى ، والأعلام تعلو الرؤوس ، والمدافع تطلق قذائفها تحية لضيفة إسماعيل الساحرة ، حتى لم يسع أوجينى إلا أن تهتف لمن حولها بقولها : « يا لله ! لم أر فى حياتى شيئاً أجمل من هذا ! » وبدأ الاحتفال العظيم الذى تكلف ملايين الجنيهات ، والذى ناءت من وطأته خزانة مصر ، فى سبيل مظهر كاذب ، وفى سبيل متعة زائلة عابرة . . . !

ثم انطلقت بها باخرتها تعبر قناة السويس حتى وصلت إلى الإسماعيلية ، وكان إسماعيل قد أقام هناك قصرأ خاصا ، فلما وصلوا إلى الإسماعيلية وانتهى الاحتفال ، وتقدم إسماعيل إلى ضيوفه يشكرهم واحداً واحداً على تفضلهم بتلبية دعوته ، ذهب إلى ذلك القصر الحديد . وبعد أن أيقنت أوجينى أن إسماعيل قد نال قسطاً من الراحة ، امتطت ظهر جواد مطهم ، وانطلقت إلى ذلك القصر ، لتشكر الحديو على حفاوته العظيمة بها ، تلك الحفاوة التى لن تستطيع نسيانها ، التى ظلت ماثلة فى ذهنها مدى حياتها .

أما باقى الملوك والأمراء فقد آثروا أن يذهبوا إلى قصر إسماعيل للشكر بعد الظهر . وفى المساء أقام إسماعيل حفلة راقصة عظيمة تحت رياسة الإمبراطورة أوجينى .



عادت الإمبراطورة الحسنة إلى بلادها من حفلة افتتاح قناة السويس نشوانة بهذه الفخامة والأبهة والمظاهر الضخمة والمتع الشائقة في تلك الليالي التي دونها ما روته ليالي « أنف ليلة وليلة » من عجائب وغرائب قدمها إسماعيل لهذه الحسنة الفرنسية في حفلة القناة التي حفرت بدماء الشعب وأرواحه . . !

ولم يمر عام حتى كانت الحرب السبعينية بين بروسيا والإمبراطور نابليون .

وكانت أنباء الخرائم تتوالى على مسامع الإمبراطورة أوجيني وهي قابضة في قصر التويلري ، فأخذت تتجلد وتبدو للأنظار ثابتة الجنان . وقد أرادت أن ترتدى ثياب الركوب ، وتمتطي ظهر جواد ، وتنطلق به في شوارع باريس تحت الناس على القتال والنضال ، فلما بحثت عن ثوبها ، وجدت أن الخدم قد انتهزوا فرصة الاضطراب وسرقوا كل ثيابها ، فلم يسعها أن تفعل ما أرادت . ولو أن الإمبراطورة قامت بما اعتزمته لكان تاريخ تلك المواقع أقل حطة وخساسة مما دونه التاريخ .

وقد أظهرت أوجيني في هذه الساعة الرهيبة هدوءاً وشجاعة وثبات جنان أثارت إعجاب كل من رآها ، وأخيراً هربت إلى إنجلترا .

وأكرمها الملكة فيكتوريا ، وأنزلتها في قصر « تشرلرست » حيث وافاها زوجها وابنها لويس نابليون ، وفي هذا القصر قضى الإمبراطور نابليون الثالث بقية حياته حتى وافاه أجله ، ودفن في أرض إنجليزية .

أما الابن لويس نابليون فقد لقي حتفه في إحدى المعارك ضد الزولو عام ١٨٧٩ ، وفي العام التالي ذهبت أوجيني إلى المكان الذي دفن ابنها فيه ، وعادت برفاته ودفنتها إلى جانب رفات أبيه .

• • •

ولقد قضت أوجيني بقية حياتها في عزلة تامة لا تتصل بأحد ، ولا

يتصل بها أحد، وكانت تتبع الأحداث التي تجري في فرنسا وهي مقيمة في الشيلا التي شيدتها في كاب مارتن على شواطئ الريفييرا، ولكنها لم تكن تتدخل في السياسة الفرنسية أبداً.

وفي سنة ١٩٠٥ زارت مصر الإمبراطورة (السابقة) أوجيني، ونزلت في فندق سافوي ببورسعيد متكرة، فأقترح الشيخ علي يوسف على الشعراء أن ينظموا في وصف هذه الإمبراطورة، ويوازنوا بين مجيئها إلى مصر في هذه السنة، لالتفت إليها الأنظار، ومجيئها قبل ذلك سنة ١٨٦٩ في افتتاح قناة السويس، فتظم حافظ إبراهيم في ذلك قصيدة جاء فيها:

أين يوم القنال يا ربة التا	ج وياشمس ذلك المهرجان
أين مجرى القنال أين مميت الما	ال أين العزيز ذو السلطان
أين ذا القصر بالجزيرة تجري	فيه أرزاقنا وتحبو الأمانى
فيه للنحس كوكب مسرع السيه	ر وللسعد كوكب مُتوان
كنت بالأمس جنة الحور يا قصه	ر، فأصبحت جنة الحيوان
خطر الليث في فنائك يا قصه	ر، وقد كنت مسرحاً للحسان
إن أطافت بك الخطوب فهذى	سنة النكون من قديم الزمان
ربّ بان نأى، ورب بناء	أسلمته النوى إلى غير بان
تلك حال الإيوان يا ربة التا	ج، فما حال صاحب الإيوان
قد طواه الردى ولو كان حياً	لمشى في ركابك الشتلان
إن يكن غاب عن جبينك تاج	كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج	لا يدانيه في الجلال مدان
كنت بالأمس ضيفة عند ملك	فاتزى اليوم ضيفة في خان
واعذرنا على القصور كلانا	غيرته طوارئ الحدان

وبعد أن قضت أياماً في بورسعيد استعادت فيها ذاكرتها تلك الأيام الذهبية والليالي الإسماعيلية التي مرت بها السنون كما تمر الأحلام، عادت

إلى إنجلترا . وكانت بين حين وحين تقوم بزيارات إلى بعض عواصم أوروبا ما عدا فرنسا حتى كانت سنة ١٩٢٠ فقامت بزيارة ملكة إسبانيا ، وقد أخذت السنون من صحتها ونشاطها : وهناك في مدريد اشتد عليها المرض ، فتمضت نحبها في ١١ يوليو من تلك السنة وانطفأت تلك الحياة التي امتلأت بالأحداث الكبرى . ولعبت صاحبها دوراً خطيراً في السياسة الأوروبية ، وكان لها من فتنها وسحر جمالها وتأثيرها فيمن حولها من إمبراطور ووزراء ورجال أقوى أداة وأعظم سلاح . . !

من الدير إلى العرش

هي قصة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، فقد جمعت من المغامرات والحوادث والمفاجآت ما اعتاد القراء أن يجدوه في القصص وحدها ، ولكنها مع ذلك قصة واقعية يشهد التاريخ بوقوع حوادثها لأنها تركت فيه أثراً يذكر بين صفحاته .

وبطلة تلك القصة هي الحسناء الفرنسية « إيميه دي ريفرى » قريبة جوزفين زوجة نابليون الأولى التي لا تقل حياتها مغامرة عنها ، وقد كان بين حياة الاثنتين ارتباط وثيق من البداية إلى النهاية .

ولدت « إيميه دي ريفرى » في جزر المارتنيك القصية ، وهي من سلالة أحد أشرف فرنسا المدعو « بيير دوبوك » .

التحق بيير دوبوك بالجيش الفرنسي بفرقة يستليو وهو في الرابعة عشرة من عمره ، واشترك في حرب الثلاثين سنة ، وظل يقاتل فيها ويجهاد أربع سنوات حتى وقعت مبارزة بينه وبين الشاب « الشفالييه دي بيانكور » قتل الأخير فيها ، ولما كانت المبارزة محرمة في ذلك الوقت ، فقد خاف دوبوك العقوبة وهرب إلى جزر الهند الغربية حتى إذا بلغ سانت كيتس أعجب به الحاكم الفرنسي « دسمانلاك » فأرسله إلى مارتنيك بصحبة ابن أخته « دي باركيه » .

وهناك كان دوبوك مثال الهمة والإقدام فإنه أول من أنشأ مزرعة لقصب السكر في « لاترينيتيه » وأول من زرع الكاكاو . وفي الوقت

نفسه كان يشترك في كل قتال يدور بإحدى الجزر الخندبة . وهكذا استقر في معيشته بتلك الأقطار النائية وأنشأ أسرة وخلف أولاداً وأحفاداً . ومن بين أحفاده هؤلاء فرنسوا دوبوك دي ريفرى الذى تزوج ماري فيكتوريا مينان سليلة أسرة فرنسية قديمة ، ومن هذا الزواج نشأت « إيميه » التى أصبحت بتصاريف القدر العجيبة « السلطانة الوالدة » فى الدولة العثمانية !

• • •

كانت أكثر الأسر الفرنسية فى مارتنيك متصلة بصلة القرابة ، وهكذا كانت جوزفين « إمبراطورة فرنسا فيما بعد » قريبة وصاحبة لإيميه « سلطانة تركيا فيما بعد أيضاً » وكانت الاثنتان تلعبان معاً وتتريسان فكانتا كتمثالين متحركين للجمال الفرنسى .

وقد ذكرت « مدام له نورمان » فى مذكراتها الشهيرة عن الإمبراطورة جوزفين أنها لما كانت بمارتنيك وقد بلغت الثالثة عشرة من عمرها خرجت يوماً ترقاض مع قريبتها وصديقتها « إيميه دي ريفرى » فصادفهما امرأة زنجية ، وذكرت المؤلفة أن اسم هذه المرأة « يوفيمى دافيد » فتنبأت لكليهما بمستقبلها المجيد . . .

وفى سنة ١٧٧٦ أرسل « إيميه » أبواها إلى فرنسا لكى تتم تعليمها فى دير للراهبات بمدينة نانت . وكانت رحلة شاقة فى سفينة شراعية صادفت الأنواء والأخطار ، ولكن « إيميه » وصلت سالمة ودخلت الدير ومكثت فيه سنوات مع الراهبات تناقى عاينهن التعاليم وأكثره دينى وترتل معهن الأدعية وتقيم الصلوات . وكانت الحرب إذ ذاك ناشبة بين فرنسا وإنجلترا ، فاضطرت « إيميه » أن تمكث بذلك الدير أطول مما قدره أهلها من قبل خوفاً من مخاطر السفر إلى مارتنيك .

وأخيراً بدأت رحلتها عائدة إلى وطنها فى أواخر سنة ١٧٨٣ بعد أن

عقد الصلح بين فرنسا وإنجلترا وصارت البحار آمنة نوعاً ، فركبت سفينة
شراعية صغيرة مع خادميها الزنجي الأمين . ولكن لم تكد السفينة تمخر
عباب « خليج بسكاي » حتى دهمتها عاصفة هوجاء فأشرقت على الغرق ،
وإذا بسفينة إسبانية كبيرة قد أتت لنجدتها ، وضنت الفتاة الفرنسية المسكينة
أنها قد نجت من الخطر ، ولكن ما كادت السفينة الإسبانية تصل إلى
مقربة من شواطئ إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط حتى هاجمها
القرصان الجزائريون فقتلوا الرجال وسبوا النساء . وكانت « إيميه » من
ضمن أولئك السبايا . وقد عبروا بها وبهن البحر الأبيض المتوسط ميممين
شطر الجزائر حيث كانت سوق الرقيق أروج ما تكون في ذلك الحين . !

وانتقلت « إيميه » بغيّة إلى عالم الشرق بشمسه الساطعة وماذنه الشاهقة
ومناظره التي لم تألف مثلها قط ، ولم تدر أن هذه أول خطوة إلى عالم لا تعود
منه ، بل ستصبح ربته وملكته . ولم تلبث أن جيء بها إلى « بابا محمد بن
عثمان » زعيم القرصان وهو جالس على أريكته في ثيابه المزركشة الموشاة
بالذهب . وكان هذا الزعيم يقاتل الدول كلها ولكنه كان على مودة مع
سلطان تركيا وكان يعد نفسه تابعاً له . فلما نظر إلى « إيميه » وشهد جماها
الغربي الفاتن رأى أن يقدمها هدية للسلطان « عبد الحميد الأول » .

وسرعان ما أعدت سفينة لنقلها إلى إستانبول فقاومت السفينة الأمواج
والأنواء ونحرت عباب البحر الأبيض المتوسط ثم بحر إيجه حتى مرت
بالدرديل وبحر مرمرة ، والفتاة المسكينة صابرة مستسامة لا تدري إلى ماذا
يبلغ بها القدر ، ولا تتوقع أنها ستكون زوجة سلطان وأنها ستترك في التاريخ
أثراً بارزاً . وقد راعها ما رآته في الآستانة من مناظر تدل على عظمة
آل عثمان وتنبئ بمبلغ التفاوت بين مدينة الغرب ومدينة الشرق .

ولما أدخلت السراي كان لا بد من تسميتها باسم تركي ، فسميت

« نشك » وولجت باب الحريم الذى كثيراً ما عبرته مئيلات لها من قبل ولم يخرجن منه بعد ذلك . وسلمت إلى رئيس الأغوات ، ولا يجهل القارئ وظيفته ولا سلطته فى ذلك العهد العتيق . وبعد أن اغتسلت وارتدت الثياب الشرقية والحلى والجواهر التى تليق بالظهور أمام السلطان ، قدمت إليه وهو جالس فى كشك بغداد تحيط به مظاهر العظمة والترف . وكان « السلطان عبد الحميد الأول » معروفاً بعلمه وحلمه ووداعته ، ومن حسن حظ « إيميه » أن يكون سيدها أو زوجها كذلك . وقد أعجب بها أيما إعجاب وجعلها السرية المختارة والزوجة المفضلة . والثابت أن عيشها معه كانت عيشة هنية حتى ليحق لها بسبب ذلك وما بلغت من الرفعة والسلطة أن تحمد القدر الذى أتاح لها القرصان ليوصلوها إلى الآستانة !

وأتيح لها سبب آخر غير جمالها يوطد مكانتها لدى السلطان وفى السراى ، فقد حملت منه وأصبحت « السلطانة الوالدة » ولا يجهل القارئ نفوذ السلطانة الوالدة فى قصور آل عثمان . ويكفى أن نقول إنها كانت بمثابة الملك فى قصره وكان رئيس أغواتها بمثابة كبير الوزراء .

وفى سنة ١٧٨٥ ولدت ابنها السلطان محموداً الثانى المعروف فى التاريخ باسم « المصلح » وفى أبريل سنة ١٧٨٩ توفى زوجها السلطان ، ولكنها من قبل أن تلد وتصبح السلطانة الوالدة كانت قد اندجبت فى دسائس البلاط العثمانى وعرفت كيف تكسب الأنصار وتكافح الخصوم . وكان سليم هو ولى العهد بعد موت عبد الحميد ، ولكنه كان حاملاً ضعيفاً ، ولذا أخذت والدته أخيه مصطفى تحريك الدسائس حتى يحل ابنها نجله فلم تجد « إيميه » من خطة أمامها سوى أن تتحد مع والدته سليم مادامت الظروف قد وجدت بين مصلحتيهما .

ولا يتسع المجال لسرد الوقائع الدموية التى تخللت صعود سليم إلى العرش ومدة حكمه والمؤامرات التى دبوت لقتله . ولكننا نقول إنه تخلل



ذلك العهد وما أعتبه عامل واحد لم يتغير قط وهو حرص تركيا على سياسة الصداقة مع فرنسا سواء في عهد لويس السادس عشر أم في بداءة عهد نابليون ، ومن ذلك أيضاً رجاء السلطان لنابليون أن يعاونه في القضاء على الانكشارية . وغنى عن البيان أن « إيميه » كانت خلف تلك السياسة والموحيه بها والمغرية بالثابرة عليها ، وإلى نفوذها وحده يرجع الفضل في تفوق سفير فرنسا بالآستانة على سفير إنجلترا .

وقد أنزل السلطان سليم من العرش وسجن وحل محله السلطان مصطفى ، غير أن عهده لم يطل فقد نشبت ثورة واقتحم الثوار القصر وطالبوا بسليم السجين ليعبده إلى العرش . وعندئذ بعثت وائدة مصطفى رسلها ليقاتلوا سليماً ومحموداً (نجل إيميه) كليهما حتى يصفوا الجولابنها وحده . ولكن إحدى جوارى إيميه أنقذت محموداً من الثوار إذ رمت في وجوههم جمرأ متقدأ وتسلق محمود مدخنة حتى وصل إلى سقف الحريم ، وبذا أنقذت حياته ثم صعد العرش وأصبح يدعى السلطان محموداً الثاني المصلح .

وقد اشتهر بإصلاحات كثيرة وفي مقدمتها قضاؤه على الجنود الانكشارية في مذبحة هائلة لعلها كانت المثال الذي احتذاه محمد علي (باشا) الكبير في قضاائه على المماليك في مصر .

وكان من أثر هذه المذبحة وامتلاء البوسفور بجثث الانكشارية أن أهالى إستامبول ظلوا أشهراً وهم يحجمون عن أكل السمك ، ولا شك أن السلطان محموداً قد أدى للدولة العثمانية خدمة جليلة بذلك العمل برغم ما فيه من قسوة ، وهو أيضاً الذى ألغى العمامة وأبدل بها الطربوش الذى ظل شعاراً للأتراك إلى ما قبل سنوات قليلة ولكنه مع إصلاحاته كلها كان مشهوراً بقسوته فتفوق أمره بذبح الانكشارية عرف عنه أنه أيد مذبحة اليونان في سنة ١٨٢١ وأنه أمر بإغراق خمس من حريم أخيه مصطفى . ويقول المؤرخون الغربيون إن لوالدته « إيميه » أكبر الأثر في إصلاحاته ، في حين

ينسبون قسوته إلى الدم التركي الذي ورثه عن أبيه !
ولعل أكبر دليل على تأثير والدته الثرنية فيه وتوجيهها لسياسته أنه
قلب لنابليون ظهرا لجنب منذ طلق هذا جوزفين قريبة أمه وصديقة صباها
وهكذا باغته بعقد الصلح مع روسيا فاستطاعت أن توجه جيوشها المحشودة
على الدانوب لتصد غارته على موسكو ، وأولا ذلك لما هزم نابليون في روسيا
هزيمته المنكرة ولتغيرت تلك الصفحة من تاريخ نابليون .

وماتت « إيميه » في سنة ١٨١٧ فدفنت في مقابر السلاطين بالآستانة ؛
وهكذا طويت حياة حافلة بالحوادث ، وختمت قصة كأروع ما يبتكره
الخيال .

حديث إبليس

« هذه هديتي إليك يا ابنتي . . . وتلك هديتي إلى أمك ، فخذى نصيبك ، وإياك أن تأكلى ما لأمك ! »

وأعطيتها تفاحتين ، احتفظت بالأولى لأنها لها ، وأسرعت إلى الثانية نأكل منها في سره وغبطة ، وكأنما نسيت أمرى ، أو أنساها حب الحياة ولذة التفاح أن تقنع بنصيبها ، وأن تعف عما لسواها ، فاقتربت منها في هدوء وانتزعت من يدها التفاحة ، ثم أمرتها للمرة الثانية أن تقدمها لأمها خالصة لها ، ولتأخذ منها ما تشاء ، فكلتاها من بنات حواء التى اشتهت التفاح ، فى الجنة ، وحرم الله عليهما شجرة التفاح ، يمتحنها ، ولكنها سقطت مختارة ، أو مكروهة فى الامتحان ، ونسيت طاعة الله ، واستجابت لغواية الشيطان . . . !

كذب إبليس عليها هذه الكذبة الخالدة التى دفعها إلى الأكل من الشجرة المحرمة ، التى زعم لها أنها شجرة الخلد ، وشجرة الملك الذى لا يفتنى ولا يبلى ، فصدقته لأنها تحب الحياة ، وتحرص على ملذاتها ، وأورثت أبناءها وبناتها هذا الحب العظيم . وأولا هذه الأكلة المشثومة لكننا الآن من أبناء الجنة ، لا من أبناء أهل الأرض المناكيد ، فقد بدأنا حياتنا فى الجنة — كما روى لنا المتقدمون — ولكن شاءت المقادير ، بل شاء الحظ العاثر بأسرتنا الإنسانية أن تكون أمنا - واء دامية أنانية ، وأبونا آدم عبيطاً خائباً . . . !! فهبطنا من أعلى إلى أسفل ، ومن السعادة إلى الشقاء ، ومن كوكب الجنة إلى كوكبنا الأرضى .

مع إبليس

لقد ضاع منا نحن البشر هذا الموكب السعيد ، وفقدناه منذ كذب إبليس هذه الكذبة الكبرى على أمتنا حواء ، وانخدع بها أبونا الطيب آدم ، غفر الله له ، وعليه السلام !

وقد ذكرت هذه الكذبة ، وأنا أكتب ، فلعنت إبليس ، وقلت لولا هذا الملعون لتغيرت حياتنا ، إلى حياة أخرى أسعد حظاً وأهدأ بالاً ، وأكثر راحة ورزقاً ، وما كدت أنتهى من هذه الكلمات حتى رأيت نور الغرفة قد خبا شيئاً فشيئاً ، ثم ما زال يخبو ، حتى أظلم كل ما حولى ، وسمعت اضطراباً ، ثم رأيت شهاباً قد لمع ثم انفجر ، وتناثر شرار من حوالى ، ثم بدأ أمامى شبح رهيب ، ذو منظر كئيب ، له قرنان طويلان ، وعينان مخيفتان . ثم أخذ هذا الشبح يضحك ضحكاً مروعاً غبت من هولاه عن شعورى ، وافتقدت نفسى ، وبعد برهة تنبهت إليه ، فراعته نظراته القاسية ، وشكله المفزع ، ولكنه أخذ يهدئ من روعى ، بصوت هامس كأنه الوسوسة ويقول : « لا تخف ، ولا تحزن ، ولا تبسط لسانك فى ذمى والسخط على . فقد أسأت إليكم حقاً يا بنى آدم بخروجكم من الجنة . وقد كان لكم فى الأرض عوض لو أنكم أحسنتم الحياة فيها وتعاونتم فى عمرانها واستغلال ما فيها من خيرات لا تنفد ، وأرزاق لا تزول ! » قلت لإبليس : « ومن أين لك هذا المنطق العجيب ، وقد أخرجتنا من الجنة لنحرم من اللذة والنعيم ، ونشقى بالتعب والجهد المقيم ، على هذه الأرض السوداء . إن حياة الجنة حياة راحة واطمئنان وسكون ، وحياة الأرض حياة جهاد ومتاعب ! »

فقال : « لقد أقمتم على الأرض - برغم المصاعب والمتاعب - حضارات باهرة ، ومدنيات زاهرة تفوق ما فى الجنة من طعام وشراب ، وكواعب أتراب ، ونوم وسيكون ، وخمول ويوكون ، فقد خلقتكم يا بنى آدم للحركة

والعمل ، لا للبطالة والكسل ، ولو كنتم قد عشمتم في الجنة ، في تلك الحياة الحاملة ، لبلغتم اليوم الذى فيه تسأمون الحياة التى فيها تتخاصمون ، لأنكم مطبوعون على حب التنقل من حال إلى حال ، والتحول من حياة إلى حياة ، ولو كانت الثانية أتعب وأشق .

فقلت لإبليس : « وماذا يهلك أنت من الحضارات الباهرة ، وعمران الأرض . ثم ماذا لو كنت تركتنا وشأننا في الجنة ، ولم تنفس على آيينا آدم قربه من الله واختيار الله له دونك . فلا ريب أننا كنا وقتئذ نستغنى عن هذه الحضارات الباهرة وتلك المدنيات الزاهرة بما أعد الله من قصور عالية ، وأرزاق دانية ، فيها خيرات حسان ولؤلؤ ومرجان ، وقاصرات الطرف لم يطمثهن إنس ولا جان . ولكن أخذ منك الحسد مأخذه ، واستولى عليك الحقد وحب الانتقام ، فأغويت أمنا حواء ! »

فقال إبليس : « نعم أغويت أمكم بالأكل من الشجرة ، وأغوت هى أباكم وما زالت هى الغاوية ، وقد أخرجتكم أنا من الجنة لحاجة فى نفسى ، فأسأتم أنتم إلى أنفسكم ، ولو أحسنتم الحياة لما فقدتم على الأرض شيئاً من نعم الجنة ، ولقد ظلمتم إبليس ، واتهمتموه بمساوئكم . وعلم الله أننى وما اخترعتم لى من أولاد وأحفاد لا أستطيع أن أنهض بكل هذه المساوئ التى سبقتهمونى إليها ، ونافستمونى فى ابتكارها حتى اعترفت لكم يا بنى آدم بالسبق ، وأقررت لكم بالعجز ، وأعلنت - أنا إبليس - الإفلاس . . . ! »

« ولم أفعلها - علم الله - إلا مرة واحدة حين أغويت أمكم ، فتعلمت منى الغواية وأرضعتكم إياها . أما أبوكم الرجل الطيب فقد كان ضحية هذه اللعنة - لعنة المرأة - التى بقيت بينكم ، وستبقى إلى يوم تبعثون ، وقد صدق أحد قضاتكم حين قال : "فتش عن المرأة" فهى التى أخرجتكم



من جنة السماء : وهبطت بكم إلى جحيم الأرض . ونصيحتي لكم ، وهي النصيحة الوحيدة لي في هذه الدنيا ، إذا صعدتم إلى الكواكب ألا تأخذوا معكم حواء ! » .

فقلت له : « عجبت لك قاصحاً : وإن كنت لا أعهد فيك غير الكذب والبهتان ! . . فهل تنقص على قصتك وما حدث لأمننا وأبيننا من غوايتك ، وليس الراوى كشاهد العيان » . . .

قصة اللعنة

قال إبليس : « سأروى لك قصة هذه اللعنة ، ولك أن تصدقني إذا شئت ، أو تعدني من الكاذبين ، فأنتم البشر قد أسأتم الظن بي ، وبسظتم ألسنتكم الطويلة في شأني ، ومن المحال أن تحسنوا الظن بأقوالى يوماً من الأيام ، لأنكم ورثتم عداوتي على مر العصور والأجيال ! » قلت : « هات ما عندك ، فإذا لم يكن في قولك الصدق فليكن فيه الخيال أو بعض الخيال ، فإن في الخيال متعة وتسلية ، وأنا أريد أن أمتع القراء وأسليهم » .

قال إبليس : « لما أراد الله خلق آدم أوحى إلى " الأرض " أني خالق بشرأ سوياً ، سيكون له أبناء وبنون منهم من يطيعني ، ومنهم من يعصيني ، فمن أطاعني أدخلته الجنة ، ومن عصاني أدخلته النار » . قالت الأرض : « أتخلق يا مولاي مني خلقاً يكون للنار ؟ » قال : « نعم » .

فبكت الأرض ، فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة ، فبعث الله إليها جبريل ليأتيه بقبضة من أحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها . فلما أتاها ليقبض منها قبضة لخلق آدم ، قالت : « أعوذ بعزة الله الذي أرسلك إلى ألا تأخذ مني شيئاً » .

فرجع جبريل وقال : « يا رب استعازت الأرض بك مني ، فلم أستطع أن أقبض منها شيئاً » .

فبعث الله ميكائيل وقال : « انطلق إلى الأرض ، فاقبض قبضة منها » فلما أتاها ميكائيل ليقبض منها قالت الأرض له ما قالت لجبريل ، فرجع إلى ربه فقال له ما قالت له الأرض . فقال الله لعزرائيل : « انطلق أنت ، فأنتى بقبضة منها طوعاً أو كرهاً ، وإذا استعازت منك فاستعذ منها ، ولا تكن من الخائفين » ، فطار عزرائيل إلى الأرض في برف ورعد وعاصفة رائعة وصواعق مروعة ، وصاح بالأرض صيحة رهيبة هزتها هزاً عنيفاً ، وزلزلها زلزلاً ما زال يعاودها كمرض من حين إلى حين ، فقال لها : « أعطني ما أمرني به الله » فقالت له : « أعوذ بعزة الله الذي أرسلك ألا تأخذ مني شيئاً » فأجابها : « وأنا أعوذ بعزته ألا أعصى له أمراً » ثم هبط عليها ، وجال بأرجائها جولات خاطفة ، قبض فيها قبضة من جميع بقاعها — من عذبتها وملحها ، وحلوها ومرها ، وطيبها وخبيثها ، وسهلها وجبالها ، ثم صعد إلى السماء ، فسأله ربه عز وجل — وهو أعلم بما صنع — فأجابه بما قالت له الأرض وما قاله لها ، فقال سبحانه وتعالى :

« وعزني وجلالي لأخلقن مما جئت به خلقاً كثيراً ، ولأسطنك على قبض أرواحهم لقله ما عندك من الرحمة » . ثم جعل الله تلك القبضة نصفها في الجنة ، ونصفها في النار . وتركها ما شاء الله ، ثم أخرجها ، فعجنها طيناً لازباً مدة ، ثم حمأ مسنوناً مدة ، ثم صلصالاً مدة ثالثة لا أدرى مداها ، ثم جعلها جسداً سوياً أقامه على باب الجنة تمثالاً جميلاً . فكانت الملائكة تمر به وتعجب من هذا المخلوق الذي أبدعه الله !

قلت لإبليس : « ما هذه الأقاويل ؟ . . أفلا تزال على عهدك تاجر الكذب والخرافة والباطيل ؟ »

قال إبليس : « وهل أروى لك إلا ما صدقني في روايته بعض مؤرخيكم الأقدمين الذين يحشدون في كتبهم هذه الأوهام والأساطير ! »
قلت : « لقد شوقني إلى أسطورة هذا التمثال الجميل ، فإذا بعد إقامته على باب الجنة ؟ »

قال إبليس : « . . مررت يوماً على الجنة أنا وجماعة من الملائكة ، فشاهدنا جسماً عجيباً واقفاً على بابها ، لا حركة فيه ولا روح ، فدفعناه ، فكاد يندفع وأولاً بعض السدنة لسقط وتهشم ! ! »
قلت : « إذن كنا ضعنا يا إبليس ، وما كنت أنا ولا غيري نرى هذه الدنيا ! ! »

فضحك إبليس وقال : « نعم ، فقد كان جسمه كالنفخار ، سريع الانكسار ، ولذلك نظرت إليه باستخفاف ، وقالت للملائكة : ما هذا المخلوق العجيب ؟ وماذا أنتم صانعون إذا فضله الله عليكم ؟ » .

فقالوا جميعاً : « نطيع الله ولا نعصيه » فقلت لهم : « أما أنا فأراني خيراً منه وأشرف خلقاً . خلقتني الله من نار ، وخلق هذا من طين . والتار أسمي من الطين ، وقد صدق شاعركم بشارحين انتصر لي على أبيكم فقال :
إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار معدنه وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

» ثم أضمرت في نفسي لأعصين الله إذا فضل هذا المخلوق على ! »
وبعد عرض آدم على باب الجنة هذا العرض الصامت ، أمر الله الروح أن تسري في جسده ، فقالت :

« يارب كيف أسرى في هذا الجسد الجامد » . فقال لها : « ادخليه كرهاً ، وستخرجين منه كرهاً » فدخلت من رأسه حتى وصلت إلى عينيه ، فجعل آدم ينظر إلى سائر جسده . ثم سارت إلى أن وصلت إلى منخريره فعطس . . . !

فقلت لإبليس ضاحكاً : « إلى هنا وتوقف قليلاً ! » ثم عطست
أنا بعدوى الحديث من هذه العطسة الأولى . أو الصدمة الأولى من صدمات
الحياة الباردة على الدوام !
ثم قلت لإبليس : « وماذا حدث بعد ما عطس آدم .. يرحمه
الله ؟ »

قال : ثم سارت الروح في جسده حتى وصلت إلى لسانه ، فقال
آدم : « الحمد لله رب العالمين » وكان هذا الحمد هو أول حمد نطق
به إنسان ، فناداه الله سبحانه : « رحمك الله أبا محمد . ولهذا خلقتك !! »
ثم لما بلغت الروح الركبتين ، تعجل آدم ، وأراد أن ينهض فلم يستطع
فقال تعالى : « خلق الإنسان من عجل » !

ولما بلغت الروح الساقين فالقدمين استوى آدم بشراً سوياً .
وإنساناً حياً كاملاً ، يتكلم ويتحرك . طوله ستون ذراعاً ، قد جعل الله
عقله في رأسه ، وصرامته في نفسه ، وعطفه في قلبه ، ثم علمه الأسماء
كلها ، وعرضها على الملائكة ، فعجزوا عن معرفتها ، وأجابوا : « سبحانه
لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم
بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات
والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

« وأمرنا الله أن نسجد لآدم ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا أنا ،
استكبرت وكنت من الكافرين ، وحسدت آدم لهذه المنزلة الكريمة ،
فكنت من الخاسرين » .

قلت لإبليس : « لقد تكبرت على طاعة الله ، فكنت أجراً المتكبرين ،
وتظاهرت أمامه بحسدك لآدم وحقك عليه ، فكنت أشجع الحاسدين ! »
فقال : « لا تلمني فإن الدافع لحسدى وحقدى هو ما أشعر به من
عزة وكرامة لم أفرط فيهما ملك ولا شيطان ، فلو أنني سجدت لهذا المخلوق

الضعيف الذى خلق من تراب ، ويعود إلى التراب ، لأهدرت كرامتى ، وأذلت نفسى . ولقد اخترت النار وطردت من الجنة .. ولأن أكون عزيزاً كريماً فى جهنم ، خير لى من أن أكون ذليلاً فى الجنة !
ثم لماذا أسجد لغير الله ؟ . . . !

فقلت له : « لا أريد أن أدخل معك فى مثل هذه الفلسفة وهذا الحوار ، وقد أصبحت من أهل النار . وكم غلب الطيبين الأشرار .. فخذ معى فى حديثك ، وقص علينا من غريبك ، وألق ما فى جعبتك من عجائب ! »

حواء والشجرة

قال إبليس : وبعد أن استوى آدم بشراً سوياً ، أسكنه الله الجنة وحده ، فشعر بالحزن والوحشة ، وعلم الله ما يجب آدم ويسره ، ويسليه ويؤنسه ، فألقى عليه النوم ذات يوم ، فراح فى حلم لذيد ، فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه اليسرى التى تجاور القلب مصدر العطف والحب ، وخلق منه زوجته حواء !

ولما استيقظ من منامه ، أبصرها بجواره ، فاغتنب برؤيتها ، وسألها : « من أنت ؟ » .

فقالت : « زوجتك حواء » .

فاحتضنها وقبلها ، فابتسمت له ، فكان فى بسمتها هذا السحر الذى أخذ ليه ، وسلبه عقله ، وأضعف إرادته ، فجرتة كلما شاءت من أذنه إلى حيث تشاء من لذة وشهوات ، فجعل يقدم لها ما تريد حتى إذا وصلا إلى شجرة التفاح ، سارت إليه أن يقطف لها تفاحة ، فسمعا هاتفاً يقول : « يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا من حيث

شئاً . ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين

فاكتأبت حواء ، واكتأب آدم لاكتئابها : وكانت كلما مرت عليها تنظر إليها في شوق ، وتخشى أن تأكل منها حتى لا تعصى أمر الله ، ثم يغالبها الشوق فيطغى على خوفها ، وتدنو من الشجرة لتأخذ منها ما تريد فيدفعها الخوف من الله فتثني وترجع إلى حيث آدم . فيراها كثيبة حزينه : فيحزن لحزنها : ويهم أن يحقق لها مناها ولكنه يذكر أمر الله ، فيطرق خائفاً .

وكنت منذ طردت من الجنة أمر يبأيها على الدوام عسى أن أصيب لحظة من سادتها ، فأعود إليها ، فعلمت من صديقتي « الحية » نبأ هذه الشجرة وتحريم ثمرتها على آدم وحواء . وكانت الحية دابة جميلة من دواب الجنة ذات أربع قوائم وجلد مزخرف جميل ، فطلبت منها ذات يوم أن تحملني في قفاها إلى داخل الجنة ، فتحولت إلى هواء ودخلت بي دون أن يفتن خزنة الجنة لهذه الحيلة الشيطانية واختفيت في ركن من الأركان حتى أقبل آدم ومعه حواء يرتاضان في هذا النعم ، فما كادا يقتربان مني حتى أجهشت بالبكاء والنحيب ، فأسرعا إلى في فزع ودهشة - وهما لا يعلمان أني إبليس - وقالوا : « ماذا يبكيك أيها الشيخ وأنت هنا في دار النعم ؟ »

قلت لهما : « لماذا لا أبكي ، وقد حرم الله الأكل من هذه الشجرة - شجرة الخلد - التي لو ذاق أحد ثمرتها ما مات أبداً ، وكان من الخالدين ! »

وأشرت إلى شجرة التفاح . .

فنظرت حواء إلى آدم ، وقالت : « ألم أقل لك إنها شجرة جميلة تجتذب النفوس ، وقد يكون فيها سر من الأسرار . . ! »

ثم سكنت وسكت آدم . وبدأت عليهما الكآبة ، وانصرفا من أمامي
يسيطر عليهما الصمت الحزين !

وبعد أيام كانا يسيران بين رياض الجنة ، وقد أمسك آدم بذراع
حواء وهي سائرة في دلال وجمال ، حتى إذا اقتربا من شجرة التفاح
نسيت آدم بجوارها وخلعت منه ذراعها ، وأقبلت إليها تنظر إلى ثمراتها
الجميلة الدانية في شهوة ولهفة وكنت محتبئاً بجوار الشجرة ، فخرجت إليها ،
وآدم عن كذب ينظر إلينا ، فسألني حواء عن حالي ، فأعدت عليها
بكائي وذكرت لها حزني لما ينتظرنا من الموت وفراق هذا النعيم .

وكان قد اقترب منا آدم ، فالتفت إليه وقلت : « هل أدلك على
شجرة الخلد وملك لا يبلى » فلم يستمع إلي ، وكاد يمضي عنا ، لولا أن
حواء نظرت إليه نظرة قاسية أوقفتها طائعاً في مكانه !

وقلت في نفسي إن إغرائي أنا لا يفيد هذا المخلوق الخائف المتردد ..
فلتكن المرأة وسيلتي إليه . فسهل على إغرائها بما ركب في طبيعتها من
حب الحياة والميل إلى الفساد والعصيان . وسهل عليها هي إغرائه بما ركب
في طبيعته من حب المرأة والضعف أمام أنوثتها ، والسعي لإرضائها وتوفير
السعادة والاطمئنان لها بما استطاع من تضحية وجهود .

وأعدت قولي على حواء ، وأخذت أغريها وأؤكد لها أن في تلك
الشجرة سر الخلود . ودنوت منها واقتطفت تفاحة واحدة ، أكلتها أمامها ،
فجعلت تنظر إلى وإلى التفاحة ، ثم تنظر إلى هذه التفاحات الكثيرة التي
تزدان بها الشجرة ، وكأنها الياقوت الأحمر معلقاً في أغصان وارقة من
الفيروز ، أو كأنها خدور العذراء تشرق بنورها بين الورود الحمراء ،
وسألني حواء : كم تعيش من العمر لو أكلت من هذا التفاح ؟ وكم تتمتع
بالشباب هي وزوجها لو أنها عصت أمر الله ؟ فالشباب أحب شيء
إلى الإنسان ، وهو زمن اللهو والمتعة والجمال ، وهي تريد المتعة وتريد

الجمال ، وأى متعة فى هذا العيش الخائف الرغيد ! ورويت لهما كم أكلت أنا من تلك الشجرة وكم عشت أنا من آلاف السنين . وقد عصيت أمر الله بامتناعى عن السجود لآدم ، ولكن الله غفور رحيم ! ! .

وأطرب حواء ما سمعت ، وأغراها حب الحياة ، والعيش فى ظلال الشباب على الدوام ، وأقبلت على الشجرة ، واقتطفت تفاحة ، وأسرعت تلثمها فى لحفة ، ثم اقتطفت أخرى وناولتها إلى الرجل الطيب آدم ، فأجفل ، وأراد أن يمتنع ، فنظرت إليه نظرة نسي فيها نفسه وعصى فيها أمر ربه ، فتناول التفاحة من يدها وأكلها ، وما كادا يأكلان التفاح حتى تناثر ما عليهما من زينة وثياب ، وطفقا يخرصان عليهما من ورق الجنة ليسترا ما تعرى من جسميهما ، وسمعا هاتفاً يقول : « اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو . . ! ! »

فهبطنا جميعاً مطرودين من الجنة : آدم ، وحواء ، وأنا ، والحية وقد مسخها الله على تلك الصورة الشنعاء !

وسكت إبليس . . ثم قال :

ولا أدري كيف هبطنا من السماء ، وكنا فى الجنة البعيدة المدى ، ولا على أى شىء هبطنا إلى الكوكب الأرضى . ولماذا هبطنا إلى الأرض ، ولم نهبط إلى كوكب آخر من المجموعة الشمسية . وقد كان من الممكن — لو شاء الله — أن نهبط إلى أحد الكواكب الأخرى . .

وحينئذ كان علماءكم فى هذا العصر سيبحثون السفر إلى الأرض بدل السفر إلى القمر والمريخ . . ! .

قلت لإبليس : « وهل شجرة التفاح نزلت معكم من السماء ؟ »

فابتسم ، ولم يتكلم . . وغاب شبحه عني فى الظلام ! ! !

أسد الأسود

قصة فكاهية مترجمة من الأدب الفارسي

« الشيخ قاصد » رجل مزارع يملك عشرين فداناً يزرعها حبوباً وقليلًا من الفاكهة والخضراوات . وقد بسط الله له في رزقه ، فلم يكن عليه ما يكون على مثله من الفلاحين من أقساط المربين ، وفوق ذلك لم يرزق أولاداً فيحتمل نفقات تربيتهم وتعليمهم وما يطرأ عليهم من أمراض وأحداث . ومع ذلك ، كان شحيحاً جداً يحاسب على الكسرة ويهتم بالمليم .

وكان له « حمار » وحيد يحمل عليه كل ما يأتي به من محصول الأرض ، ولا يدع له فرصة للغذاء أو الراحة طول يومه إلا غراراً ، حتى هزل الحمار المسكين وضعف عن القيام بما يكلفه به من حمل تلك الأثقال الكبيرة التي لا ينال من ورأها إلا الجوع والنصب الدائم .

ولما وجد « الشيخ قاصد » أن حماره أصبح عاجزاً كل العجز عن القيام بحاجاته الزراعية وغيرها ، وضعه على عربة ثم سار به إلى خارج القرية ، حيث الصحراء الواسعة ، ورمى به على الأرض جثة حية ، لا تستطيع حراكاً ، وظن « الشيخ قاصد » أنه بذلك قد نجا من شيء قد يكلفه نفقة دون أن ينال منه منفعة . . !

رجع « الشيخ قاصد » إلى قريته حامداً الله على أن تخلص من هذا الإنفاق على هذا الحيوان الذى لا نفع فيه . وبقى الحمار المسكين على الأرض يتلفت هنا وهناك عما يقوته ويسد رمقه ، وبينما هو فى هذه الحال وجد بالقرب منه بعض الحشائش الخضراء فقد رقبته إليها ، واستطاع بذلك أن يلتهم منها قدرأ أعاد إلى جسمه الحياة وجعل يتمالك نفسه حتى وقف وأخذ يتهادى على الأرض ، ويلتهم كل ما يصادفه من طعام .

وبقى على ذلك مدة عادت إليه فيها صحته وقويت أعضاؤه واشتدت قوائمه ، فصار يروح ويحيى كالحيوان الوحشى فى قوته وسرعة حركته ، خصوصاً وقد ألف عيشة الفراغ الخالى من المتاعب والتكليف ، واستراح إلى تلك الغابات التى يأوى إليها حيث لا مالك له يكدر عليه صفو الحياة وقد أعجب بنفسه ، ومشى شامخاً بأنفه . . .

وكان بالقرب منه مأوى لأسد لم يقع يوماً نظره على حمار أهلى ؛ فلما قدم الحمار إلى هذا المكان لم يقترب الأسد منه اتقاء لما قد يحدث بينهما من الشر ، وهو لم يختبر قوته ولم يعرف عنه شيئاً .

وذات يوم فكر الأسد أن يذهب إلى هذا الحمار ويتنازل له عن الملك ، ويصبح هو من "حاشيته" لأنه وجد فيه صفات لا توجد بنفسه كطول الأذنين وكبر الرأس وارتفاع القوائم . . .

وسار الأسد إلى حيث يقطن الحمار ، فما كاد يقترب منه حتى رفع علم السلام بيده وخفض رأسه . فلما رأى الحمار هذه الهدنة الغريبة من جانب الأسد اغتر بنفسه ، وشمخ بأنفه ، وأظهر صولة وعظمة ، وسأل الأسد عما يريد أن يرفعه إليه من المطالب ، فقدم له الأسد تنازله عن عرشه وعرض عليه أن يكون كأحد أعوانه وخدامه ، فقابل هذه الطاعة من جانب الأسد بالرضا والامتنان ، وسمح له أن يكون خادمه أنى ذهب أو أقام . . .

• • •

مكث الأسد في خدمة الحمار يؤدي كل ما يصدر إليه من الأوامر والتعليمات بكل عناية وولاء . وذات يوم كانا سائرين في الطريق فلقيا شجرة عالية ذات أغصان كثيرة الأوراق ، ولكنها في ارتفاع لا يستطيع أن يصل إليه فم الحمار . فلما رأى الأسد أن مليكه يريد أن يتناول من ورق هذه الشجرة ، وثب وثبة عالية أمسك فيها بأحد الأغصان وجذبه إلى الأرض حتى تمكن الحمار من أن يقبض عليه بقمه قبضة قوية ، ولما رأى الأسد أن الحمار قد أمسك بالغصن تخلى هو عنه دون أن ينزعه من الشجرة ، ولكن مرونة الغصن تغلبت على الحمار فأعادت الغصن إلى ارتفاعه حاملاً الحمار من الأرض إلى أعلى .

فبقى الحمار معلقاً في الغصن على ارتفاع من الأرض لا يستطيع أن يقذف بنفسه منه . فلما رأى الأسد أن مليكه « الحمار » في خطر ، وثب بقوة إلى حيث الغصن ، واجتذبه إلى الأرض ، حتى نزل الحمار سالماً . غير أن الحمار بعد أن استقر في مكانه نظر إلى الأسد في غضب وحنق وقال له :

« من الذي أمرك أن تعمل هذا العمل ؟ هل طلبت منك أن تنزلي من

فوق الغصن ؟ »

فقال له الأسد :

« عفواً يا مولاي لقد رأيتك في خطر فجذبت الغصن لكي تنزل إلى

الأرض سالماً »

فقال له الحمار :

« كلا . لم أكن في خطر ، إنني أردت أن أتمرجح قليلاً على هذا

الغصن في الهواء ترويحاً لنفسى ، فإياك أن تفعل مثل هذا الفعل مرة أخرى دون أمر أو إشارة مني » .

فأطرق الأسد طائعاً وسمع لما أمر به مليكه ، ثم سار وراءه يجتاز

الأحراش والغابات ، والتفار وهو قائم بخدمته يدافع عنه ويجلب له الطعام ويحرسه إذا غفل أو نام .

وذات يوم كانا سائرين في الطريق فاعترض سيرهما نهر جار أراد أن يجتازاه فدفع الأسد نفسه ووثب وثبة انتقل إلى الشاطئ الآخر ، فلما رآه الحمار قد وثب هذه الوثبة جمع كل قوته وشمر عن ساعده ، ودفع بنفسه إلى حيث الشاطئ الآخر كما فعل الأسد ، إلا أن قواه خائته في وسط الطريق فسقط على أم رأسه في النهر ، فحمله التيار الجارى بسرعة ، وصار يطفو ويرسب في الماء فخاف الأسد عليه الغرق ، فرمى بنفسه في النهر وراءه حتى أمسك به وجذبه إلى الشاطئ وخرجا معاً سالمين ، وظن الأسد أنه بهذا العمل قد أدى واجباً يتال عليه من مليكه أحسن الجزاء .

ولكن الحمار - قاتل الله غروره - ما وصل الشاطئ وعرف أنه صار في أمان وسلامة حتى نظر إلى الأسد نظرة نارية ثم على ما بنفسه من الحنق الشديد ، وقال للأسد :

« ألم أقل لك لا تفعل شيئاً إلا إذا أصدرت إليك أمراً أو إشارة ؟ »
فأجابه الأسد في اعتذار :

« عفواً يا مولاي ، لقد رأيتك في خطر وخشيت عليك الغرق » .
فقال الحمار :

« كلا . لم أكن في خطر ، إنني أردت أن أرتاض في النهر قليلاً ، فأنعش بمياهه جسمي ، ولكني سأعفو عنك هذه المرة أيضاً وإياك أن تعود لمثلها أبداً » .

فأطرق الأسد في خضوع وطاعة . ثم برحا النهر وسارا في طريقهما حتى وصلا إلى ظل شجرة عالية ، فنام الحمار ، وقعد الأسد يحرسه ، وبينما كان الحمار غارقاً في نومه فكر الأسد في الفرار من هذه المعيشة

الحمارية التي لم يجد فيها راحة ولا شكراً .

وقام من جانب الحمار يتسلل في خفة وهدوء وما ابتعد عنه حتى
عدا عدواً سريعاً لاجئاً إلى أحد الكهوف ! ! . .

وإنه كذلك وإذا بضبع داخل عليه ، فحياه تحية المسود للسيد ،
وجلس بجانبه يتحدث إليه ، فأخبره الأسد بتقصته مع الحمار ، غير أنه
لم يذكر له اسمه ، فطلب الضبع من الأسد أن يذكر له أوصافه ، فأخذ
يسرد عليه أوصافه الخاتمية والجسمية ، فقال له الضبع : « أظن أن هذه
الأوصاف تنطبق على الحمار » فقال الأسد : « كلا ، إنه ليس حماراً
بل أسد الأسود » فعارضه الضبع وأقسم أنه هو الحمار بعينه ، وعرض
على الأسد أن يأمره بالذهاب إليه ليفترسه ، ويأتي له برأسه . فنهاه الأسد
عن هذا العمل مخافة أن يعرض نفسه للهلاك ، ولكن الضبع صمم على
الذهاب إلى الحمار فسمح له الأسد أخيراً بالذهاب ومكث في مكانه
ينتظر ما سيكون .

• • •

سار الضبع إلى الحمار ، حتى بلغ مكانه ، فلما اقترب منه لمح
الحمار ، وكان قد استيقظ من نومه ، فجمع مقدمتيه ومؤخريته إلى بطنه
وتظاهر بالمرض ، ثم قال للضبع في مكر ودهاء قبل أن يقترب منه : « إن
بقدمي الخلفية اليمنى شوكة صغيرة ولكنها تؤلني ، فإذا أمكنك أن تنزعها
منها قدمت نفسي لك طائعاً مختاراً ، وإذا لم تفعل ، فعليك أن تقدم لي
الطاعة » .

فاستهان الضبع بهذه الشوكة ورضى بهذا الشرط ، ثم اقترب من
قدم الحمار لينزع الشوكة منها ، وما كاد يفعل حتى جمع الحمار كل
قوته في قدميه الخلفيتين ورفسه رفسة شديدة أسقطت أسنانه كلها ،

فراجع الضبع المسكين ، وفر صارخاً شائعاً نفسه لغايته التي أوردته هذا المورد المؤلم وجعل يقول :

« ما لي أنا وما لهذه الشوكة . . هل كنت طبيباً ؟ . . أو كان ابن جراحاً أو هل اشتغلت صبي مزين أطلع الشوك من أيدي الزبائن . . حقاً أنا غبي ! . . »

ومضى الضبع المسكين إلى الأسد غارقاً في دمائه . فلما رآه الأسد على هذه الصورة قال له : « أُولم أقل لك إنه " أسد الأسود " ، وليس حماراً ؟ » فقال له : « نعم صدقت ، لقد تعجلت في حكمي فلقيت من وراء ذلك شراً » .

أما الحمار فإنه فرح بهذا النصر المبين ، وقام يحتال معجباً بنفسه ، وسار في ثبات وشجاعة غير خاش ما قد يصادفه من خطر . . وكيف لا ، وهو الذي استخدم الأسد مدة ، وضرب الضبع ضربة أطارت أسنانه ، بل كيف لا يطير فرحاً وقد نجا من شقائه الأول وأصبح في بحبوحة من الأمن والرخاء .

وبينما هو على هذه الحال السارة لقيه في طريقه جمل شارد من شقاء مالكة منذ مدة ، فسأل كل منهما صاحبه عن خبره ، فأفصى كل منهما للآخر بقصته ، وفي نهاية الحديث اتفقا على أن يعيشا معاً .

مرت على هذه العيشة أيام ، فكانا يخرجان معاً فياً كلان ويشربان ، وذات يوم كانا سائرين في الطريق فامحما من بعد قافلة تسير برجالها وكان معهم بعض الحمير ، وإنهما لكذلك وإذا بأحد حمير القافلة يهق نهقة عالية ، فقال الحمار للجمل : « ما أحسن هذا الغناء ، إنني يا صاحبي أريد أن أغني مثله » فقال له الجمل : « إياك أن تفعل ، وإلا هديت هؤلاء الرجال إلى طريقنا فنعود إلى شقائنا الأول » ؛ فقال له الحمار : « ولكن نفسي تلح على في ذلك » فقال له الجمل : « تغلب على

نفسك بقدر ما تستطيع » ، فقال له الحمار : « كلا ، كلا ، لا أقدر »
 ونهق نهمة قوية نهت رجال القافلة ، فالتفتوا نحوها ، فأبصروا الحمار والجمل
 واقنين معاً ، فهرعوا نحوهما وأمسكوا بهما ، واقتادوهما إلى القافلة ووضعوا
 عليهما بعض الأحمال .

فندم الحمار على هذه الفعلة حيث لا ينفع الندم ، أما الجمل فإنه
 تلقى هذا الحادث بصبر وجلد وغيظ مضمراً للحمار في نفسه أمراً . وسارت
 القافلة ، وسار الحمار والجمل معها . وفي أثناء الطريق تظاهر الحمار
 بعجزه عن حمل ما وضعوه فوق ظهره ، وتوقف في الطريق فخشى الرجال
 أن يؤخرهم الحمار عن السير ، فرفعوا ما فوق ظهره من الأحمال ، ووضعوه
 فوق ظهر الجمل ، فلم يظهر الجمل ضجراً أو تمللاً وسار صامتاً لا يأتي
 بأية إشارة أو حركة .

غير أن الحمار لم يكفه أنهم رفعوا عنه حمليه ، بل أراد أن يستعمل
 مكره لينجو بنفسه من الشقاء كما نجا في المرة الأولى ، فتظاهر بالعجز
 عن السير وتوقف في الطريق ، وظن بذلك أن رجال القافلة سيتركونه
 حيث أصبح عاجزاً عن السير والعمل ، ولكن لم يلبث أن رأى رجال
 القافلة قد حملوه بينهم ووضعوه فوق ظهر زميله الجمل . فصار الجمل
 المسكين حاملاً مع الحمار حملين ، ولكنه لم يظهر أيضاً ضجراً أو تمللاً ،
 وسار في صبر وثبات .

وبينما القافلة جادة في سيرها أخذت تجتاز جبلاً عالياً ، وصار
 الجمل الذي يحمل مع الحمار حملين يقترب قليلاً قليلاً من حافة الجبل
 حتى أشرف على واد عميق فعرف أنه بأقل حركة يسقط ما عليه من
 الأحمال ، نادى الحمار المطمئن على ظهره : « إني أريد أن أرقص
 يا صاحبي » ، فأجابه الحمار في دهشة وخوف : « ترقص ؟ . . كيف

ذلك ونحن في مكان لا يصلح للرقص ؟ » ، فقال له الجمل : « ولكن
نفسى تلح علىّ في ذلك » فقال له الحمار : « تغلب على نفسك بقدر
ما تستطيع » ، فقال له الجمل : « كلا ، كلا ، لا أقدر ، وهل تغلبت
على النهيق ؟ ! » ثم رقص رقصة هوى فيها الحمار إلى أسفل الوادى وذهب
غير مأسوف على غروره ومكره . وكذلك جزاء كل محتال غرور . . . !

بيت من ملح

عبد الله بن علي أمير من أمراء بني العباس الذين كان لهم من المقام والنفوذ بين قومهم ما جعلهم مقدمين على غيرهم من ذوى الجاه والسلطة بين العرب ، حتى كان ابن أخيه الخليفة المنصور يغض الطرف عن بعض زلاته نحوه اتقاء لما قد يقع من الفتنة بين العباسيين الذين لعبدالله منهم عمومة وأشياء كثيرون .

غير أن الخليفة المنصور كان كسائر الملوك يقلقه أن يرى بجانبه ذا جاه ونفوذ يحترم لأجلهما ويقدم في مجتمعات القوم وحفلاتهم ، فكان يتربص بعمه عبد الله الدوائر ، وينتهر الفرص للقضاء على نفوذه كي يوفر لنفسه اطمئنانها ، ولقلبه راحته .

وذات يوم باغ المنصور أن عمه عبد الله يسعى في تقويض سلطته ، وينشر عنه أموراً لا تحملها حراسة الملك ، ويتقول عليه بما يضعف هيئته ونفوذه بين الناس فاستفز ذلك المنصور ، ورأى الفرصة سانحة للقضاء على ما لعمه عبد الله من هيبة في النفوس جعلت له شيعة وأنصاراً .

وسرعان ما احتال عليه في عزله من قيادة بعض جيوشه ، ثم استدعاه إلى بغداد كي يأمن شر امتداد سلطته ونفوذه اللذين يخشى منهما على كيان ملكه ونظام حكومته فهاجت نفوس أشياء عبد الله غير أنهم لم يستطيعوا أن يعملوا عملاً يخلص صاحبهم من يد المنصور وخافوا أن

يأتوا بحركة من شأنها أن تعرضهم للانتقام الحكومة وأتاهم بالاشتراك مع عبد الله في المؤامرة ضد الخليفة المنصور . فكظموا غيظهم وكتبوا أمرهم حتى تناح لهم الفرصة لخلاص صاحبهم من يد خصمه .

غير أنهم أخذوا يحتالون سرًا لهذه الغاية ، وجعلوا يستعملون عدة وسائل شيطانية كادت توصلهم إلى غرضهم لولا يقظة المنصور وحذره من إفلات فريسته التي كابد في القبض عليها وأسرها مشقة كبيرة .

وكان والى الكوفة في ذلك الوقت عيسى بن موسى بن عم الخليفة المنصور ، وكان بينه وبين الخليفة بعض الجفاء لما بلغه عنه من أمور أفسدت عقيدته فيه ، وصرفت عنه ميله ، فأراد الخليفة المنصور أن يدبر لعيسى وعمه مكيده يذهبان ضحيتها فيستريح منهما ويتق شرهما معاً . !

فأمر باستدعاء ابن عمه عيسى من الكوفة ، فذهب إليه الرسول وبلغه دعوة أمير المؤمنين له ، فخالج عيسى بعض الشك في أمره ، غير أنه تغلب على سوء الظن ، ورأى أن يسرع في الذهاب إلى بغداد لإجابة لطلب أمير المؤمنين .

سار عيسى إلى مدينة بغداد مقر الخلافة العباسية ، وما وصل إليها حتى تلقاه الخليفة المنصور بمظاهر الحفاوة والإجلال ، ثم أكرم مثواه ، وجعل يفسح له من مجلسه ويقربه إليه ، فمكث عيسى عنده بضعة أيام رأى فيها ما أقنعه بإخلاص أمير المؤمنين له وحبه إياه .

ولما وثق أمير المؤمنين من أن عيسى قد غرتة تلك المظاهر ، وأيقن أنه هو والى المصطفى من بين سائر ولاة الخليفة ، استدعاه ذات يوم إلى مجلسه وقال له : « يا بن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعداً على حمل ثقله ، فهل أنت في موضع ثقتي بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي ؟ » فقال له عيسى بن موسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه »

فقال المنصور : « إن عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيع دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا ، فخذة إليك واقتله سرًّا » .
 فاغتر عيسى بكلام أبي جعفر المنصور ، ووافقه على تدبيره ولم يفتن إلى ما حاكه له المنصور من المكيدة التي فيها القضاء على حياته .
 تسلم عيسى بن موسى عمه من يد المنصور ، وسار به إلى الكوفة محل ولايته ، فعلم أشياخ عبد الله بنجر انتقاله مع عيسى ابن أخيه ، وأيقنوا أن لا بد في الأمر مكيدة حاكها المنصور للقضاء على عبد الله ، فقام عدة أفراد منهم سرًّا ليحاربوا هذه المكيدة ويقضوا عليها بالفشل ، وقابلوا « يونس بن قرة » كاتب عيسى بن موسى ، وأفضوا إليه بنجر عبد الله بن علي ، وأوصوه بمحاربة كل تدبير فيه للقضاء على حياته ، فوعدهم يونس بإجابة مطالبهم .

ولما استقر بعيسى المقام مع عمه في الكوفة تذكر ما أمره به أمير المؤمنين من قتل عمه سرًّا ، وإخفاء أمره ، فخالجه في ذلك شك وتردد . ورأى أن يشاور في الأمر أحد أخصائه ممن يثق بإخلاصه وحصافة رأيه ، فاستدعى « يونس » وكانت له ثقة بأمانته ، وعقيدة صالحة في إخلاصه ، وقال له : « يا يونس إن أمير المؤمنين قد دفع إلى بعمة عبد الله ، وأمرني بقتله وإخفاء أمره ، فما رأيك في ذلك وما عسى أن تشير به ؟ »

فتذكر يونس عند ذلك ما أنبأه به شيعة عبد الله ، ورأى الفرصة سانحة للعمل لنجاته ، وسرعان ما أجاب عيسى بن موسى قائلاً : « أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك ، وعم أمير المؤمنين ، فإنك إن قتلته عرضت نفسك للقصاص ، وأرى لك أن تدخله في مكان بدارك لا يصل إليه أحد ثم تتكلم أمره عن جميع من حولك ، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه ، وتجعل دونه مغالق وأبواباً ، ثم تظهر للأمير المؤمنين أنك قتلت ، وأنفذت أمره فيه ، وانتهيت إلى العمل بطاعته ، فكأنني به

إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به ، وقتلت عمه ، أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد ، فإن اعترفت بأنك قتلته بأمره أنكر أمره لك ، وأخذك بقتله وقتلك به .

فرأى عيسى بن موسى سداداً فيما رآه يونس ، ونفذ جميع ما أشار به .

علم المنصور سرّاً من عيسى أنه قتل عمه عبد الله فتظاهر بالرغبة في الحج بعد ذلك ، وشد رحاله إليه تمويهاً على الناس كي يستطيع أن يدعى أنه سلم عمه عبد الله إلى ابن أخيه عيسى ليحفظه عنده حتى يتسلمه بعد رجوعه من زيارة بيت الله الحرام ، فإذا ما عجز عيسى عن تسليمه إليه ألزمه القصاص وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به كما تنبأ يونس لأمره عيسى بن موسى ! . . . !

سار المنصور إلى الحج وغاب مدته عن بغداد ، ولما رجع واستقر في نفسه أن عيسى قد قتل عمه دسّ إلى أعمامه إخوة عبد الله وحثم سرّاً على أن يسألوه أن يفرج أمير المؤمنين عن أخيه ، فجاءوا إليه ، وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم ، وطلبوا منه أن يفرج عن عبد الله ، فقال لهم : « نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم ، كيف وفيها صلة رحم ، وإحسان إلى من هو في مقام الوالد » . . . !

ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته ، فقال له المنصور : « يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي » فقال عيسى : « قد فعلت يا أمير المؤمنين » فقال المنصور : « قد سألتني فيه أعمامك وقد رأيت الصفح عنه ، وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه ، فأتنا به الساعة » ! !

فتظاهر عيسى بالتردد والاضطراب ، ثم قال له : « ألم تأمرني بقتله

والمبادرة إلى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » ، فقال المنصور : « كذبت ، لم آمرك بذلك ، ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك » ثم أظهر الغيظ من عيسى وقال لأعمامه : « قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أنني أمرته بقتله ، وقد كذب على » ، وقال الأعمام : « ادفعه إلينا يا أمير المؤمنين لنقتله به ونقتص منه » ، فقال المنصور : « شأنكم به » .

دفع المنصور عيسى بن موسى إلى أعمامه ليقتصوا منه جزاء قتله لعمه ، فأخذوه إلى « الرحبة » واجتمع الناس حوله ، وقام واحد من أعمامه وسل سيفه ليضربه به ، فقال له عيسى : « يا عم أفاعل أنت ؟ » فقال : « إني والله ، كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي ؟ ! » فقال لهم : « لا تعجلوا وردوني إلى أمير المؤمنين » فردوه إليه ، فلما مثل بين يديه قال عيسى : « يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلي بقتل عمي ، والذي دبرته لي قد عصمني الله تعالى منه ، وهذا عمك باق حي أسوي ، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعته الساعة » .

فأطرق المنصور وعلم أن ريح فكره لقيت إعصاراً ، وأن انفراده بتدبيره صادم خساراً ، ثم رفع رأسه وقال : « اثنا به » فضى عيسى وأحضر عبد الله ، فلما رآه المنصور قال لأعمامه : « اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً » ، فتركوه جميعاً وانصرفوا .

بقى عبد الله عند المنصور مدة معزلاً مكرماً ، لا يخشى شيئاً وقد أمنه على نفسه وماله ، ولكنه لم يسمح له بالخروج من حوزته في بغداد .

واطمأن أنصار عبد الله على حياته ، ولكنهم كانوا على الرغم من هذا الاطمئنان يخشون غدر المنصور ، ودسائس رجاله . وقد غدر بأبي مسلم الخراساني قائد جيوش العباسيين في خراسان ، وأول ناصر لهم ، وبأبي دولتهم ، فلماذا لا يغدر بعبد الله ، وقد اعتقد أنه يفسد عليه ملكه ، وينافسه في نفوذه ويحارب سلطانه .

وهذا ما حدث ، فإن المنصور لم يستطع أن يرى عبد الله بن علي أكبر أمراء العباسيين سناً ، وأكثرهم أنصاراً ، حياً يخشاه ويخشى قوته ، وقد كان قائداً لحيوش الشام ، فأخذ يدبر له مكيدة ، لا تكشف غدره ، ولا تفضح أمره ، فأمر ببناء بيت جديد ، ودس سرّاً لرجاله أن يبنى على أساس من الملح ، فبنى هذا البيت بجوار قصر المنصور .

وبعد تمام بنائه دعا المنصور عبد الله بن علي ، وأمره أن يسكنه ليكون بجواره ، فخضع إلى أمره ، وانتقل إلى هذا البيت ، وهو لا يدري شيئاً ، وقد أسس بأثاث فاخر ، وأحيط بمظاهر الفخامة والروعة .

وفي فجر أحد الأيام أمر أبو جعفر المنصور رجاله أن يرسلوا الماء حول البيت ، فما كاد يغرق أساسه حتى ذاب من تحته الملح ، فسقطت جدراناه وتهدم على عبد الله ومن معه ، فقتلوا ، وأخرجت جثة عبد الله ، ودفن بمقابر باب الشام . . .

بنت فرعون

أسطورة مصرية طريفة يرجع تاريخها إلى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد

أنا آهورى ابنة الملك « منيب بتاح » والرجل الذى ترونه مسجى بجوارى هو أخى « نينوفرك - بتاح » وقد ولدنا من أب وا-د وأم واحدة ، ولم يكن لوالدينا من ذرية سوانا ، فلما بلغت سن الزواج قادونى إلى مجلس الملك فى الوقت الذى كان يستقبل فيه حريمه وكنت حين ذاك جميلة حسناء ، فقال الملك :

— انظروا ! لقد غدت ابنتنا آهورى امرأة ، وحل وقت زواجها ،
فبمن نزوج ابنتنا آهورى . . ؟ !

وكنت أحب أخى من أعماق قلبى ، ولم أكن أبغى زوجاً سواه ،
فأخبرت أمى بذلك فقالت هى للملك :

— إن ابنتنا آهورى تحب أخاها فلنزوجها له تبعاً للتقاليد !

فلما أن أتمت أمى حديثها قال لها الملك :

— إن لك ولدين فقط فهل تبغين زواجهما ، كل واحد للآخر !
أليس من الخير أن نزوج آهورى لابن رئيس جنودنا المشاة ، ونزوج
نينوفرك - بتاح بابنة رئيس آخر من قادة جنودى ؟

— إذن فأنت تبغى معى شجاراً . إنه ليس لى سوى ولدين ، ولكن
التقاليد تحتم زواج الأخ بأخته . . !
فقال فرعون لرئيس البيت الملكى :
— احملوا آهورى هذه الليلة إلى قصر أخيها مع جميع أصناف
الهدايا الفاخرة !

وحملت كزوجة إلى قصر نينوفرك بتاح وأمر فرعون قومه أن يأتوا لى
بمهر كبير من الذهب والفضة ، وحمل إلى جميع أهل البيت المالك
الهدايا والمنح .

وأمضى نينوفرك نهاره معى فى ولائم وحفلات ، واستقبل جميع أهل
البيت المالك وأنفق الليل كله معى . . !
وسرعان ما حملت طفلاً ، فطير الخبر إلى فرعون ، فابتهج قلبه
وسر فؤاده ، وأخرج من خزائنه الملكية صنوف الجواهر الغالية وبعث
إلى هدايا جميلة من الذهب والفضة .

وأنجبت الغلام الذى ترونه أمامى والذى أطلق عليه اسم « مابهيت » .
وبعد أيام كثيرة من هذا الحادث بدأ نينوفرك — وكان لا شىء
يشغله فى الحياة سوى التجول بين القبور فى ممفيس — يقرأ ما هو مكتوب
على مقابر الفراعنة وما هو مسطر فوق توابيت النساخ والسحرة ، لأنه
كان يهتم بهذه الكتابات اهتماماً بالغاً .

وحدث بعد ذلك أن أقيم موكب تكريم للإله بتاح وذهب نينوفرك
للمصلاة ، وبينما كان فى مؤخرة الموكب رآه رجل هرم فضحك :
فقال للرجل :

— لماذا تضحك منى ؟ !

— إننى لا أضحك منك . ولكننى لا أقوى على كتم الابتسام إذ
أراك تأتى إلى هنا لتقرأ كتابات لا قوة فيها ! فإذا كنت تريد قراءة

كتابات حقاً فتعال معي وسوف أرسلك إلى مكان الكتاب الذي سطره
« ثوث » بيده العلوية حينما هبط إلى الأرض مع غيره من الآلهة .

ففي هذا الكتاب عزيتمان ، إذا تلوت الأولى سحرت السموات
والأرض ومواطن الليل والجبال والمياه ، وتفهم ما يقوله الطير وتلفظه
الضعابين ، وترى الأسماك في قاع الماء لأن قوة علوية تسيطر على الماء الذي
يعاوها .

وإذا قرأت العزيمة الثانية فإنك تتشكل بهيئتكم التي تكون عليها
في الأرض بعد أن توارى ميتاً في التراب .
أجل ! إنك ترى الشمس تعلو في السماء في موكبها الإلهي ، والقمر
في هيئته الحقيقية التي يبدو فيها !

— قل لي وحياء الملك عما تريده ، فأعطه لك إذا قدتني إلى مكان
ذلك الكتاب .

— أعطني إذن مائة قطعة من الذهب لدنفي ومر بصنع تابوتين لي
كما يصنع لأغنياء القسس !
وأمر نينوفرك أحد خدمه بأن يعطي القس مائة قطعة ذهباً ، وأمر بأن
يصنع له تابوتان !

— إن الكتاب المقصود في وسط النيل عند « قفط » في صندوق من
الحديد ، وفي هذا الصندوق الحديدي صندوق من البرونز وفي صندوق
البرنز صندوق من خشب القرفة ، وفيه صندوق من العاج والأبنوس ، وفي
هذا الصندوق آخر من الفضة فيه صندوق من الذهب تجدد فيه الكتاب ،
ويوجد عدد كبير من الثعابين والعقارب حول الصندوق المحتوي على
الكتاب ، وكذلك يلتف حوله ثعبان خالد !

وبلغ من دهشة نينوفرك عند سماع هذه الأقوال أنه لم يدر مكانه من الدنيا فبرح المعبد وأخبرني بما حدث ، وقال :

— سوف أذهب إلى « قنط » وأحضر الصندوق ثم لا أبرح أرض الشمال أبداً .

ورفعت يدي أحاول منع أخى عن الذهاب إلى أرض طيبة فلم يستمع إلى وذهب إلى فرعون يقص عليه ما قال القس فقال له أبوه :

— وما هي أمنية قلبك . . ؟ !

— أن أعطي السفينة الملكية تامة التجهيز والإعداد وسوف آخذ آهورى شقيقتي وطفلها ما بهيت معى إلى الجنوب ، وسوف أحضر الكتاب ثم لا أبرح هذه الأرض .

وأعطى السفينة كما أرادها فركبناها إلى « قنط » حيث أقبل كبير كهنة إيزيس والكهنة إلى لقائنا ، فوقفوا أمام أخى ووقفت نساؤهم بين يدي ، فنزلنا إلى البر وذهبنا إلى معبد إيزيس والآلهة العظام وقدم نينوفرك ثوراً وأوزة وخمراً قرباناً لإيزيس والآلهة العظام ، ونزلنا في بيت جميل حيث لبث أخى أربعة أيام في ولائم واستقبالات مع الكهنة في حين كانت زوجاتهم يحتفين به .

• • •

وفي اليوم التالى أمر نينوفرك — بتاح بإحضار كمية من الشمع النقي فصنع منها قارباً ببهارته ومجاذيفه ، وتلا عليهم « عزيمة » نشرت فيهم الحياة والروح ، ثم ملأ السفينة الملكية رملاً واستأذنى وذهب .

وصاح أخى : « أيها المجدفون . . جدفوا بي إلى مكان الكتاب » فجعلوا يجدفون ليلاً ونهاراً ثلاثة أيام وصل بعدها إلى المكان .

ووجد كمية كبيرة من الأفاعى والعقارب حول صندوق من الحديد
وثعباناً هائلاً يلتف حول الصندوق ، فتلا عزيمة سلب بها الحياة من
الأفاعى والعقارب ، ثم هجم على الثعبان الهائل وقتله ولكنه عاد إلى الحياة
بشكل جديد ، فهجم عليه أخى مرة أخرى وقتله فعاد إلى الحياة ثانية ،
ولكن أخى شطره نصفين ووضع بين شطريه رمالاً ، فمات الثعبان ولم
يعد إلى الحياة .

وذهب نينوفرك - بتاح بعد ذلك إلى مكان الصندوق فوجده مصنوعاً
من الحديد فلما فتحه وجد صندوقاً من البرونز فيه صندوق من خشب
القرفة ، فلما فتح هذا الصندوق وجد فيه صندوقاً من العاج والأبنوس من
داخله صندوق من الفضة فيه علبة من الذهب داخلها كتاب .
وأخرج الكتاب من العلبة الذهبية وقرأ العزيمة التى كانت مكتوبة
فيه ، فسبحر السموات والأرض ومواطن الليل والحبال والمياه وفهم ما تقوله الطيور
فى الجو والأسماك فى الماء والحيوان فى المرتفعات . .

وتلا العزيمة الثانية فرأى الشمس فى السماء تسير فى موكب الآلهة
والقمر يصعد الفلك والنجوم حوله فى أشكالها الحقيقية ، ورأى الأسماك
فى قاع الماء لأن قوة علوية تسيطر على الماء الذى فوقها .

• • •

وعزم أخى على الماء فاستعاد هيئته الأولى ثم أبحر عائداً وقال للمجدفين:
— جددوا بى إلى مكان آهورى . .

فجدفوا به ليل نهار زهاء ثلاثة أيام حتى وصل فوجدنى على شاطئ
قنط ، كالموتى لم أتناول طعاماً ولا شرباً ولم أتحرك من مكانى ، وقلت له :
— وحياتى الملك لتدعنى أرى ذاك الكتاب الذى تعبنا من أجله كل
هذه المتاعب .

فوضع الكتاب فى يدى فما قرأت العزيمة الأولى حتى سحرت السموات والأرض ومواطن الليل والجبال والمياه ، وفهمت ما تقوله الطيور فى الهواء والأسماك فى الماء والحيوان فى المرتفعات ، وقرأت العزيمة الثانية فرأيت الشمس تسير فى موكب الآلهة والقمر يصعد الفلك ، والنجوم فى أشكالها الحقيقية ، ورأيت الأسماك فى قاع الماء لأن قوة علوية تسيطر على الماء الذى فوقها .

ونادى أخى على قطعة من البردى البكر وسطر عليها جميع ما كان مكتوباً فى ذلك الكتاب ، ثم غطس البردى فى خمر إلى أن ذاب فيه جميعاً ثم شربه ، وبذا أدرك جميع ما كان مكتوباً .

وعدنا فى نفس اليوم إلى « قفط » وأقمنا وليمة باهرة عند إيزيس وكبار الآلهة ثم رجعنا إلى السفينة وأبحرنا صوب الشمال .

ولكن « ثوث » علم بما حدث لكتابه فأسرع إلى رفع شكواه أمام إله الشمس « رع » فقال :

— إن قانونى وشريعتى قد أخذهما نينوفرك — بتاح بن الملك منيب —
بتاح ! ولقد اقتحم مسكنى ونهبه وأخذ صندوقى وكتاب سحرى وعزائمنى
وقتل حارسى الذى كان يرعى الصندوق .

— إنه لك ، هو وجميع ما معه . . . كله !

ولوح الإله العظيم بيده وقال :

— لن يصل نينوفرك — بتاح إلى منفيس سالماً ، لا هو ولا أحد
ممن معه !

وفى هذه اللحظة زحف ولدى « مابهيت » من تحت الصوان الملكى
المنصوب فوق سطح السفينة الملكية وسقط فى الماء تنفيذاً لمشئته « رع » .

وصاح جميع من كانوا على ظهر المركب فحضر أخى من حجرته وتلا عزيمة على الطفل فصعد إلى سطح الماء ، ثم تلا أخرى جعلت الطفل يقص كل ما حدث له ، وتهم ثوث التى قالها للإله رع .

• • •

وعادنا إلى قفط نحمل ولدنا المائت إلى دار التحنيط وأقمنا أناساً حوله يؤدون المراسيم الجنائزية ، وبعد أن حنطناه كأمر ملكى دفناه فى مقبرة قفط .

وقال أخى :

— لنذهب ، لنعد قبل أن يعلم الملك بما حدث فينشغل باله .

وعادنا إلى السفينة وأبحرنا إلى أن وصلنا إلى المكان الذى سقط فيه ولدى ما بهيت ، فخرجت من تحت الصوان الملكى المنصوب فوق سطح السفينة وسقطت فى الماء تنفيذاً لمشيئة رع ! فصرخ جميع من كانوا على ظهر المركب فأقبل أخى وتلا على عزيمة فارتفعت فوق سطح الماء ، ثم نقلنى إلى السفينة وتلا عزيمة أخرى جعلتنى أنبئه بما حدث لى والتهم التى تقدم بها « ثوث » إلى الإله رع .

وعاد أخى إلى قفط وحملنى إلى دار التحنيط وأقام حولى أناساً يؤدون المراسيم الجنائزية . وبعد أن حنطت كما يجب أن أحنط كامرأة ملكية دفنت فى المقبرة التى دفن فيها ولدى ما بهيت من قبل .

وأبحر أخى ثانية فلما أدرك المكان الذى سقط فيه ولدى ولحقته فيه حدث نينوفرك — بتاح نفسه قائلاً :

— أليس الأجدر أن أعود إلى قفط وأبقى معها ؟ فإننى إذا عدت إلى منفيس وسألنى فرعون عن أبنائه فاذا عساى أجيبه ؟ هل أقوى على

أن أقول له : « لقد أخذت أولادك معي إلى أرض طيبة حيث قتلهم وبقيت حياً ، ثم عدت بعد ذلك إلى منفيس حياً .. ؟! »

وأمر بإحضار قطعة من قماش ملكي صنع منها لفافة سحرية ربط بها الكتاب ولفه حول صدره وثبته جيداً ثم خرج من تحت الصوان الملكي المنصوب على سطح السفينة وسقط في الماء تنفيذاً لمشية « رع » وصاح النوتية يقولون :

— آه ، يا للمصائب الفادحة ، يا للمصيبة الكبرى ، لقد ذهب الكتاب العظيم والرجل الحكيم الذي لا ضريب له !

وأبحرت سفينة فرعون دون أن يدري أحد مكان نينوفرك — بتاح ، ووصلت إلى منفيس ، وأبلغ الأمر إلى فرعون فجاء إلى السفينة يلبس السواد ويتشح رجاله وجنوده وكهنة بتاح وجنود منفيس بملابس الحداد ، فأوا نينوفرك — بتاح معلقاً بأهداب مجاديف السفينة الملكية بقوة سحره وسعة علمه ، فلما رفع من الماء رثى الكتاب فوق صدره . وقال فرعون :

— ارفعوا هذا الكتاب عن صدره ، فعاد إلى الحياة وخرجنا من القبر ، فقال رجال حاشيته :

— أيها المولى العظيم .. لتظل حياتك حتى تبلغ عمر « رع » . . لقد كان نينوفرك — بتاح ساحراً بارعاً ، وكان عالماً عظيم الحكمة . والفضل في ذلك يرجع لكتاب الإله « ثوث » الذي سطره بيده العلوية حين هبط إلى الأرض . . .

سارق التحف

فى ذلك الحى الفاخر المحيط بقوس النصر فى باريس وهو الذى يعرف عادة عند الفرنسيين باسم « قسم النجمة » وقعت عدة حوادث سرقات لفتت إليها الأنظار إذ كانت جميعها موجهة ضد جماعة من الأغنياء هواة التحف الفنية التى يصل ثمن الواحدة منها إلى مئات الألوف من الفرنكات . .

وتبادر إلى الأذهان فى أول الأمر أن هناك لصوصاً كثيرين لأن طريقة السطو فى كل حادثة كانت تختلف عنها فى الأخرى . . ولكن اكتشفت بعد ذلك عوامل ظهر منها بوضوح أن السارق فى جميع هذه الحوادث واحد . . ولو أنه يحتمل أنه استخدم كثيرين لأن طرق السطو كما قدمنا تختلف بعضها عن بعض ، والمعروف لدى المشتغلين بتحقيق الجنايات أن لكل مجرم طريقة خاصة فى ارتكاب جريمته لا تميمص له عنها : فاللص الذى يسطو على المنازل فى منتصف الليل غير اللص الذى يسرق مخازن التجار فى رائعة النهار . . ولا يمكن أن يحدق فرد واحد أكثر من نوع واحد من اللصوصية وإلا وقع بسهولة فى يد العدالة .

ومن العوامل المثبتة أن السارق واحد : أن السرقات جميعها كانت تتناول فى كل مرة قطعة أو قطعتين — لا أكثر — من التحف فى القصر المسطو عليه فى حين تكون هناك تحف أخرى من ذهب أو فضة خفيفة الحمل غالية الثمن ومع ذلك لا تمتد إليها يد السارق !!

كذلك ظهر أن اللص لم يترك في أى حادثة أثراً — مثل بصمات الأصابع أو خلافتها — يستدل منه البوليس عليه !!
عهد إلى الضابط دورنى بالبحث عن مرتكب تلك السرقات .
والضابط دورنى — من قسم مباحث باريس — معروف بين إخوانه بأنه ضابط خيالى يسير وراء إحساسه الشخصى دون لجوء إلى الطرق العلمية الثابتة التى يسير عليها بوليس سكوتلانديارد مثلاً ، وإنما هو يرتب مطاردة المجرم بأسلوب خيالى تاركاً إياه يلف نفسه بالشبكة التى ينصبها له بحذق وبراعة يسترعيان الأنظار .

فلما عهدت إليه هذه المهمة جلس إلى مكتبه يستعرضها بصوت مسموع قائلاً : « إذا فرضنا أن اللص سرق لينهب فلا بد أنه باع ما يسرق فإن المعروف عن اللصوص أنهم لا يستبقون لديهم أشياء مسروقة زمناً طويلاً إذ لا صبر لهم على اجتناء ثمرة سرقاتهم وإذن فمن الجائز — لا سيما أن السارق واحد — أن يكون قد سرق هذه التحف إرضاء لشهوة شخصية .. وإذا تقرر هذا وجب فحص نوع التحف المسروقة لنرى ما إذا كان هناك توافق وتناسق بينها وبين بعضها البعض . . . »

وعندما استقر رأى على بحث هذه النقطة أرسل فى طلب تاجر كبير من تجار العاديات والتحف وأطلعه على كشف التحف المسروقة قائلاً : « أرجوك أن تخبرنى عن وجوه التوافق بين التحف المذكورة بهذا الكشف ، وإذا كانت تؤلف مع بعضها متحفاً ذا دلالة معينة كأن يشير إلى عصر من العصور أو حضارة خاصة أو أى شئ من هذا القبيل . »

فأكب التاجر على دراسة الكشف ولكنه لم يلبث أن رفع رأسه مدهوشاً ماداً ذراعيه كمعادة الفرنسيين فى إظهار عاطفة خاصة ثم قال : « إن الرجل الذى لديه هذه المجموعة أستاذ أساتذة الفن غير مدافع !! وإني إذ أتخيل غرفة تضمها لا يمكن أن تقع العين على أجمل منها ولا أروع !! ذوق

بديع سام !! وعين حساسة لا تخطئ التفريق بين تناسق الألوان إلى أبعد مدى !!! »

وعندما أفرغ التاجر جعبة دهشته كان دورنى أثناء ذلك مطرقاً مفكراً فرفع رأسه قائلاً للتاجر: « إني أطلب منك أن تقدم لى قطعة ، تحفة نادرة ثمينة تلائم هذه المجموعة » .

فذهب التاجر ثم عاد بعد أسبوع ودخل على دورنى حاملاً « دورقاً » من الباور مكسواً بـ « جراب » من البلاتين والذهب الأبيض بديع الصنع جذاباً . حملق فيه دورنى غافلاً عن رد التحية على التاجر الذى أنشأ بعدها يقول : « لقد جئتك ؛ ثق من أن الرجل الذى تبحث عنه لا يبخل بتعريض حياته للخطر فى سبيل الحصول عليها . . ولكنه إذا أفلت بها فإن ثمنها جسيم !! »

أجابه دورنى : « لا تخف من هذه الناحية فإن جماعة الأغنياء الذين سرقت منهم التحف متضامنون فيما بينهم للقيام بجميع نفقات الخطة التى رسمتها » .

بعد أسبوعين صدرت الصحف الفرنسية حافلة بوصف قصر جديد أعد فى حى النجمة لإقامة زائر عظيم من أغنياء البرازيل يدعى المستر أراجيو الذى قدم إلى باريس لقضاء شهر العسل مع عروسه المستر أراجيو وقد أحضر الضيفان معهما من البرازيل مجموعة نادرة من التحف الثمينة . وإنهما يرحبان بأدباء باريس وهواة الفنون الجميلة فيها الذين يرغبون فى مشاهدة هذه المجموعة ، وقد فتحا أبواب قصرهما للزائرين خصيصاً لهذا الغرض .

وما لبث هذا الخبر أن ذاع حتى أصبح قصر أراجيو كعبة الوفود الباريسية ، وكان الزوار إذ يدخلون ساحة القصر يستقبلهم موظف فيه فيقودهم إلى مقصف فاخر يقدم لهم فيه الشراب الهنىء والطعام الشهى ، ثم يخرجون منه إلى صالة التحف فيمتعون أنظارهم منها بكل طريف

نادر . ثم يذهب منهم إلى صالة التدخين من شاء ومن شاء ودع بأحسن مما استقبل به .

ولم تمض بضعة أيام على الحلبة التي أثارها وجود هذا القصر فجأة في حى النجمة حتى جليجل بارييس نبأ آخر نشرته الجرائد في صفحتها الأولى ، وإليك مضمونه :

« فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمع رئيس الخدم فى قصر أراجيو صوت حركة خفيفة فى صالة التحف فمشى إليها على أطراف قدميه (والحقيقة أن رئيس الخدم هذا لم يكن إلا دورنى وقد كان محتبئاً فى صندوق عبارة عن تحفة بديعة) فرأى اللص داخلاً من النافذة فانتظر عليه حتى أصبح داخل الغرفة وقريباً من الدورق فأضاء النور وصوب المسدس إلى اللص . . وسرعان ما رفع هذا يديه مدعئاً بالتسليم فقبض عليه البوليس وأراح الحى من شر سارق التحف . »

إلى هنا انتهت رواية الصحف الفرنسية فى ذلك اليوم .

وجلس دورنى يحقق مع اللص . . . فاعترف هذا قائلاً : « اسمى توشون وقد كنت جالساً فى قهوة فحضر إلى رجل لا أعرفه وفاجأنى قائلاً : " أنت توشون وأنا أعرفك ولكن لا تخف فإنى لست بوليساً سرياً وإنما أريدك أن تذهب إلى صالة التحف فى قصر أراجيو وتحضر لى الدورق البلورى الذى تجده بجوار النافذة وأنا أعرف بيتك وسأحضر إليك لآخذ منك الدورق وأعطيك عشرة آلاف فرنك " وما سبق لى أن سرقت شيئاً من التحف التى ضاعت من قصور هذا الحى . »

وبينما كان دورنى منهمكاً فى التحقيق مع من ظنه فى أول الأمر السارق المنشود إذا بالجندي الوحيد الموكل بحراسة قصر أراجيو تنزل على رأسه ضربة تلقية صريعاً ويدخل شخص إلى صالة التحف من النافذة التى دخل منها توشون ويذهب بالدورق الثمين !

وبعد أيام تبخر قصر أراجيو في الهواء وعاد الأثاث الذى كان قد فرش به إلى أصحابه ، وبقدر ما كانت الخطة التى رسمها دورنى لاقتناص سارق التحف رائعة كان فشلها أروع .

ولكن دورنى لم يفتقد الأمل لأنه كان محتاطاً لهذا الفشل ، مدخراً تدبيراً آخر يلجأ إليه عقيب ذلك الفشل . وهذا هو الفرق بين رجال سكوتلانديارد وبين رجال بوليس باريس السرى ، إذ يهاجم الأولون بكل قواهم ، فى حين يتمنن الآخرون بأن يتركوا المجرم ينتصر فى بعض المواقع حتى ينهكوا قواه .

كان زوار قصر أراجيو — كما قدمنا — يذهبون إلى المقصف أولاً ، وقد راعى دورنى فى هذا التدبير أن تقدم الصحف والكؤوس إلى الزائر نظيفة مجاوة خالية من أى أثر من أصابع مقدميها وذلك بأن جعل خدام المقصف يلبسون قفازات من الجلد الأملس ، وكانوا إذ يتناولون الصحف والكؤوس من الزائر يحتفظون بكل مجموعة منها فى مكان خاص يوضع عليه اسمه — أى اسم الزائر — حتى إذا أمسى المساء أخذ الخبراء صور بصمات الأصابع التى عليها وحفظوها تحت اسم صاحبها .

فلما فشلت الطريقة السالفة ذهب دورنى وطائفة من موظفى قلم البصمات ، يراجعون آلاف البصمات التى اجتمعت لديهم ممن زاروا القصر الوهمى على بصمات المجرمين المحفوظة فى سجلات قلم تحقيق الشخصية .

وبعد بحث طويل دقيق ظهر لدورنى أن بصمات أصابع شخص يدعى رينيه فوخس تاجر العاديات فى حى النجمة تطابق بصمات أوجين كوريو الذى سبق الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات فى حادث بيع تحف زائفة مزورة ! !

وفي اليوم الثاني كان دورني مختفياً وراء نافذة المنزل المتقابل لمنزل كوريو يراقب دخوله وخروجه .

واستمرت هذه الرقابة بضعة أيام إلى أن غادر كوريو منزله في صبيحة أحد الأيام فعبر دورني الشارع إليه وصعد إلى شقة كوريو ففتحها بمفاتيح مصطنعة ودخل بحجوب أرجاءها ويفتش دواليبها فما عثر على شيء يدل على أن لكوريو يبدأ في تلك الجرائم ولا في غيرها !

ولكنه وهو يفتش أحد الأدراج عثر على قفاز من الحرير الأملس وقد أوشك على البلى من كثرة الاستعمال ! فخطر له فكرة في مثل البرق وما لبث أن أخرج من جيبه مبرداً دقيقاً وجعل يبرد خنصر قفاز اليد اليسرى حتى يراه بصورة غير ظاهرة . ثم ذهب إلى الغرفة التي ينام فيها كوريو ، ويجانب السرير فيها دورق ماء (عادي) ! وفوقه كوبه من الزجاج وقد اعتاد كوريو أن يشرب كوبه ماء قبل النوم وعندما يستيقظ ، فتناول دورني الدورق والكوبه بين يديه ونظفهما تماماً وأعادهما إلى موضعهما ثم خرج من الشقة وأغلق قفلها مثلما كان .

وفي اليوم التالي انتظر دورني حتى خرج كوريو ودخل إلى الشقة وكان معه دورق وكوبه مشابهين للدورق والكوبه اللتين في غرفة النوم فوضع هاتين محل هاتين وغادر الشقة توجاً إلى معمل تحقيق الشخصية فتأكد من أن رينيه تاجر التحف وكوريو هما اسمان لشخص واحد . ثم ذهب ينتظر .

وبعد بضعة أسابيع وقعت حادثة سرقة أخرى في بيت أحد الأغنياء هواة التحف في حي النجمة ودلت جميع ظروفها على أن مقترفها هو سارق التحف بعينه !

فذهب دورني مستصحباً أقدر كياوى في قلم البصمات وقال : « إن أمامك أصعب شغلة تقوم بها في حياتك فإن البصمة التي نريد التقاطها

هى بصمة أصبع واحد هو خنصر اليد اليسرى وستجدها مطبوعة من وراء قنار . فإن لم تحترس وتشتغل بشعرة واحدة من الفرشة ضاعت جهودنا وأفلت المجرم ! »

وراحا يستعينان بالميكروسكوب فى البحث عن آثار ذلك الخنصر على مختلف التحف التى أعرض عنها السارق الفنان وينثران الدقيق الرمادى على البقع الملونة والأسود على اللطخ البيضاء حتى إذا بدت لهما شبه بصمة التتقطعا المصور حتى اجتمعت لدهما عدة بصمات لخنصر يسرى . فتتنفس دورنى الصعداء إذ صدق حدسه .

وفى اللحظة التى قرأ فيها دورنى توقيع كوريو صر محاً قفز إلى سيارة (تاكسى) منطلقاً إلى زميله المقتنى أثر كوريو الذى كان إذ ذاك فى منزل أحد أعضاء مجلس النواب ، وإذ رأى رجل البوليس دورنى قال له : « إنه لا يزال هنا » فسأله دورنى : « أمتأكد أنت من ذلك ؟ » فأجابه الآخر : « نعم ، فإنه لم يخرج أحد من المجتمعين بعد وقد خرجت فقط سيدة أصيبت بإغماء حتى اضطروا إلى مساعدتها فى الوصول إلى سيارتها . »

فهمهم دورنى ثم قال : « اصعد إلى فوق واطلب مقابلة المسيو رينيه فوخس وعندما يحضر لمقابلتك ألق القبض عليه وسأنتظرك هنا . »
فصعد الشرطى مزهواً - وقد كان حديثاً فى الخدمة - بأن يعهد إليه بالقبض على كوريو وقرع الجرس وطلب من الخادمة أن تدعو المسيو فوخس لمقابلته دون أن تزعج أحداً من المجتمعين . فذهبت ثم عادت تقول له : « لقد خرج المسيو فوخس ولكنه ترك ورقة قائلاً إن شخصاً سيحضر للسؤال عنه وحينئذ تسلم له هذه الورقة » فضرب رجل البوليس على الأرض بإحدى رجليه قائلاً محمداً : « خرج ؟ هذا مستحيل ! فقد كنت واقفاً أراقب الباب ! »

ثم فتح الورقة وقرأ :

« دورنى

« أنت رجل ذكى ولكنك حقاً لا تقدرنى . أفلا تظن أنى بحثت حتى عرفت من عهد إليه بالكشف عن هذه الحوادث ؟ ومنذ أن علمت أنك أنت الشخص الذى يتعقبى لم يكن من الصعب على أن أفهم فخ قصر أراجيو .

« مسكين توشون ! لقد وجدت نفسى مضطرباً أن أطعم الفخ فعثرت على هذا الغر الأحمق سىء الحظ إذ كنت أعلم أنكم ستأخذونه إلى مركز البوليس فيخلو لى الجوى ، ولكنك تجرح كبريائى بوضعك مثل هذا الأبله لمراقبى وأظنه لا يزال ينتظرنى !

« وختاماً أهنيك على ما كدت تحرزه من نجاح

ك . . . »

ونزل الشرطى بالورقة فدفعها إلى دورنى ووقف يراقبه أثناء قراءته لها منتظراً بصبر نافذ وهلع شديد قيام العاصفة عليه من رئيسه . ولكن دورنى أتم قراءتها ثم قال بهدوء : « وقد يهمنى أن نعرف الطريقة التى هرب بواسطتها ، فهيا بنا نصعد لنرى » .

واستقبلتهما ربة الدار فى اضطراب بالغ قائلة : « لا أكاد أفهم شيئاً مما يجرى حولى وكل ما أعلمه هو أن المدموازيل سوريل التى حضرت مع المسيو فونخس ليشرى الشاى عندنا شعرت بدوار فأدخلتها إلى غرفتى لتستريح وبعد نصف ساعة اشتد بها المرض فبحثت عن المسيو فونخس ولكنى لم أجده وحينئذ أوصيلها زوجى إلى سيارتها » .

فسألت دورنى : « هل تسمحين لنا بإلقاء نظرة فى غرف المنزل ؟ »

فامتقع وجه السيدة قليلاً ولكنها تقدمته إلى غرفتها فما كادت تفتح بابها حتى بدت فتاة بارعة الجمال هى المدموازيل سوريل مستلقية فى

السريـر لابسـة ثوب « بنوار » ربة الدار وفي إحدى يديـها رواية تقرؤها وبين أصابع الأخرى سيجارة تدخنـها .

ولم يلق دورنى نصيباً كبيراً فـي أن يعرف أن المدموازيل سوريل إن هـي إلا خـليـلة كوريـو وقد ادعت المرض وخلعت ملابسـها فارتداها حبيـبـها وفر بها وبقيت هـي منتظرة في هدوء رجاء أن تقرضها ربة الدار ثوباً تعود به إلى منزلها .

وسخر الجمهور الباريسى من دورنى الذى تظاهر بالغـيظ والحقـق فى أحاديثه مع الصحفيين ولكنه كان يخفى وراء غضبه واضطرابه نفساً هادئة مطمئنة إذ أنه لم يكن غيباً كما تصوره كوريـو . وإنما كان الشرطى الأبـله الذى اختاره هو بنفسه حتى إذا أفلت منه كوريـو اعتقد أنه أفلت من جميع مراقبيه ومتعقبـيه !! ولكن زميلا من زملاء دورنى لا يقل عنه مهارة ولا دهاء كان هو الظل الحقيقى للملازم لكوريـو وهو لم يفارقه لحظة واحدة . وقد استمر دورنى يتأنى من زميله هذا أخبار كوريـو فى مخبئه حتى لم يكن يتعذر عليه أن يقبض عليه فى أى وقت شاء . . . ولكن دورنى كان يريد أن يعلم المكان الذى أودعه كوريـو التحف المسروقة إذ أنه لو قبض عليه قبل ألا استدلال على هذا المكان فإنه لن يرشد عنه وحينئذ تبقى التحف فى مخبئها .

لهذا أفسح دورنى الطريق أمام كوريـو ليهرب عساه يلجأ إلى المكان الذى أخفى فيه التحف ، ولبت منتظراً حتى يوافيه مساعدوه الذين فى أثر كوريـو بنجر ذلك المكان .

وكان من بين هؤلاء المساعدين ممثلة ألمانية — لم توفق على خشبة المسرح — فى خدمة دورنى ، وكان عليها أن تراقب المدموازيل سوريل وقد لعبت دوراً خطيراً معها .

ذلك أنها ذهبت يوماً إلى منزلها فطلبت مقابلتها ، وبالرغم من الحذر الشديد الذى استقبلتها به المدموازيل سوريل فقد صارحتها الشرطية الדהية قائلة : « لقد حضرت إليك يا مدموازيل سوريل لأبوح لك بالخطة التى يدبرها دورنى ضد حبيبك والدافع لى على ذلك هو الانتقام منه لأنه عبث بعواطفى زمنياً حتى إذا عرف غبرى هجرنى ولم يعد يهتم بى ، ولعله يظن أن مهنته تخيف الناس فيمتنعون عن الانتقام منه ولكنه واهم ، وهو الآن ناصب شركه للقبض على حبيبك الذى يراقبه أحد رجاله الآن فى هيبير . »

فاكتمهر وجه المدموازيل سوريل إذ كان كوريو محتفياً حقيقة فى هيبير دون أن نخطر فى باله أو فى بالها أن هذا الخبر معروف للبوليس . واستأنفت الشرطية الممثلة حديثها قائلة : « ولما كنت أعرف أن دورنى سوف ينال شهرة عظيمة بقبضه على كوريو فإنى أريد أن أحول دون حصوله على هذه الشهرة ، كلا ، لا أريده أن ينال أى شهرة أو يرقى ، لأنه سوف يفاخر بذلك ، فلا تتوانى فى إرسال برقية إلى حبيبك ليهرب ، ولا بأس بأن أخبرك أيضاً أن رجلاً آخر أحسن من دورنى يحبى وهو الذى يراقب حبيبك فى هيبير ولكن فخر القبض على كوريو سيعود كله على دورنى ، ولا ينالنا منه شئ . . . وزيادة فى الإيضاح أخبرك أن حبيبى المراقب لحبيبك متنكر فى زى تاجر عاديات سوبسرى وقد أصبح فى زيه صديقاً لكوريو . »

فنهضت المدموازيل سوريل واقفة وقالت : « إنى لا أفقه حرفاً مما تقولين ، وإنما لدى موعد الآن فإلى اللقاء ! ! »

فغادرت الشرطية الغرفة وعلى وجهها اسمى مظاهر الاستياء — التقليدى مش الأصلى ! — من غباء المدموازيل سوريل !

وبقليل من التفكير استطاعت المدموازيل سوريل أن تدرك أن أقوم خطة هى أن تسافر بنفسها إلى حبيبها لتحذره . فحملت حقيبتها واستقلت

أول قطار إلى الجنوب وعندما بلغت هير انطلقت إلى محباً حبيبها فابتدرته
قائلة « بيرا » ثم طفتت تقص عليه الحكاية التي سمعتها من حبيبة دورني
السابقة (والمزيفة !) فلما انتهت من قصتها رفع كوريو رأسه بتؤدة قائلاً :
« إذن جوجون شرطى هو الآخر . أليس كذلك ؟ ولكن لا بأس فإنه
سيتعشى معنا الليلة !! »

وفي المساء تعشى جوجون مع كوريو وخليلته والظاهر أنه أفرط في
الطعام والشراب لأنه لم يلبث أن نام على المائدة وقضى الطبيب بضع
ساعات يعالجه حتى أفاق من الخدر الذى دس له في الشراب ولكن
كوريو وخليلته لم يضيعا الوقت سدى فحزما أمتعتهما ونزلا فاستقلا سيارة
إلى منتون الواقعة على الحدود الفرنسية الإيطالية ، وهناك في ظلام الليل
ركبا زورقاً فنقلهما إلى الريفيرا الإيطالية .

ولم يداخل كوريو وخليلته أى شك في أنهما أصبحا بمأمن من الرقباء ،
إذ كانا يعرفان البحار صاحب الزورق الذى نقلهما كما كانا واثقين من
أن أحداً لم يتبعهما .

وهكذا دبر دورني هذه الحيلة الثانية ليمهد السبيل أمام كوريو ليفر
إلى محباً التحف بعد أن وثق أنه ليس في هير .

وفي ليلة ليلاء بعد بضعة أيام من هرب كوريو وخليلته إلى الريفيرا
الإيطالية سار دورني على رأس قوة مؤلفة من أربعة من الشرطة الفرنسية
الأشداء وثلاثة من الإيطاليين حاملي القرايبينات حتى وصل إلى منزل
(فيلا) جميل قائم على رابية فطرق بابه وترقب قليلاً فرأى بصيصاً من
نور يطفأ فجأة في إحدى النوافذ ولكن لم يتقدم أحد لفتح الباب !!

فالتى دورني حجراً من النافذة التى كان فيها النور وصاح قائلاً :
« افتح لنا يا كوريو وإلا كسرنا الباب » .

وأعقب ذلك صمت يرهة ثم دوى صوت أجش من الداخل قائلاً :
« إذا دخلتم فإني سأطلق رصاصة على الصندوق الصغير الذى هنا
فأحطم ما فيه » .

فأجابه دورنى : « إني لا أصدقك يا كوريو فإنك إذا لم تكن قد
أحببت هذه الأشياء فلاريب أنك كنت تبيعها ، وما دمت قد أحببتها
فلا يمكنك أن تحطمها وثق أنك مهما قاومت فإننا لا بد ملقون القبض
عليك » .

وأشار إلى رجاله فأشعلوا النار فى الباب حتى انفتح له طريق اندفعوا
منه شاهرين مسدساتهم فانهال عليهم رصاص مسدسى التحليلين وجاوبوهما
بالمثل فكانت معركة حامية ، ثم دوت صرخة سكت على أثرها أحد المسدسين
وصاح كوريو بصوت متحشرج ممزوج بالألم : « سلمنا !! لقد
أصبت !! كفى عن إطلاق النار يا سوزان » . ولكنها أجابته بصوت
المغيظ : « كلا ! » واستمرت فى إطلاق النار والشرطة بجاوبونها متقدمين
خطوات شجعهم عليها صوت كوريو يتوسل لخليته ناصحاً لها بالتسليم
مادام قد جرح ، ثم نادى بصوت عال : « أرجوك يا دورنى ألا تمسها
بأذى فاسأحملها على أن تكف عن إطلاق النار » . ولكنها أجابته مصرة :
« فلنمت معاً وتذهب هذه الأشياء معنا » فأجابها كوريو هالماً :
« لا يا سوزان ، لا تدمرى هذه الأشياء الجميالة التى أحضرتها من أجلك
إني لا أسمح لك بتدميرها !! »

وجعل دورنى يتقدم متلصصاً شاهراً مسدسه خشية أن يكون ذلك
الحديث خدعة ، ولكن صوت المدموازيل أسوريل رن فى المكان قائلة :
« أضيئوا النور بحق الآلهة ! إني أسلم نفسي ! أنقذوا بيير إنه يحتضر !! »
فرمى دورنى علبة ثقاب فتناولتها وأشعلت عوداً فشاهدها الشرطة جاثية

على ركبتيها بجوار حبيبها تحاول وقف نزيف الدماء من جرح في صدره
فتقدم دورنى ووراءه الشرطة ونقل كوريو إلى إحدى الغرف ثم نقل إلى
باريس حيث أعتنى بجرحه فلم يمت ، وقدم للقضاء فصدر عليه حكم
مخفف وأعيدت التحف إلى أصحابها ، وخلد دورنى اسمه في سجل الدهاة
من رجال الشرطة .

المسافران

كان الرجلان مسافرين معاً في عربة سكة حديد واحدة لم يكن فيها سواهما ولبثا زهاء ساعتين دون أن يقول أحدهما للآخر كلمة ، وأكبرهما سناً يقرأ جريدة ، على حين كان الأصغر ويدعى هانشو سائحاً في بحار من الخيال ويدخن غليونته بحركة ميكانيكية ، إذ كان ذلك الغليون خالياً من الطباق .

والتقى الشيخ جريدته جانباً وجعل ينفض رماد غليونته ، وفي هذه اللحظة رأى حال زميله في السفر وكيف أنه يدخن دون طباق ، فالتفت إليه وقال :

— أليس معك طباق . . خذ بعضاً مما معي . .

ونظر إليه هانشو نظرة شكر وعرفان جميل ومد يده إلى كيس الطباق بملاً منه غليونته وهو يقول :

— لقد ركبت القطار دون أن أحمل شيئاً معي من الطباق .

وتفكر المسافر في هانشو فرآه يلبس ثوباً قديماً فأيقن أنه رقيق الحال ، وأن الهم يبديه أكبر سناً من الحقيقة فسأله :

— هل أنت مسافر من أجل عمل ؟

— نعم إنني مسافر للبحث عن عمل وهو بحث طال بي كثيراً .

— وهل أنت ذاهب إلى العمل معين ؟

— أجل فإنني على موعد في جريدة نورثرن نيوز إذ رشحت نفسي

لمنصب محرر القسم الرواى فيها . هل تعرف شيئاً عن هذه الجريدة .. ؟
 - إنها مصادفة عجيبة أن نساfer فى عربة واحدة إذ أننى أعلم أن
 شخصين فقط هما اللذان رشحا لهذا العمل .

- وبعد ؟

- وأنا هو الشخص الثانى ؟

ومر هانشو بيده فوق جبينه كأنه تعب يساوره القلق ، فقال
 له الشيخ :

- وهل أنت معلق أملاً كبيراً على ذلك العمل ، هل أنت بلا عمل
 الآن ؟

- نعم . وهأنذا أرى منافساً فى العمل الذى كنت أرقبه من حين
 بعيد !

- إننى لست مضطراً جداً للعمل ، وإذا علمت . .

- أتعنى أنك إذا علمت مبلغ اضطرارى إليه تتخلى لى عنه ؟

- ربما ولكننى أريد أن أعرف ظروفك أولاً . .

وحملق هانشو فى وجه مخاطبه قليلاً ثم مال فى مقعده إلى الخلف ونظر
 إلى السقف برهة كأنه يستجمع أفكاره وقال :

- حسناً . إليك قصتى التى تبدأ منذ أيام الحرب الأخيرة . فقد
 كان دوران صديقى وزميلى فى القتال وكنت أحبه ويودنى وزاد تعلقى
 وإخلاصى له منذ أن أنقذ حياتى من موت أكيد فى صفوف القتال معرضاً
 حياته للخطر الذريع .

وقبل نهاية الحرب أصبت بجرح خطير ولما شفيت منه كانت الحرب
 وضعت أوزارها ولكننى بقيت أعرج قليلاً فالتحقت بعمل يلائمنى واستعنت
 بالأجر الضئيل الذى أتقاضاه منه على العيش بعد أن أضفت إليه المعاش
 الذى كانت تصرفه لى الحكومة .

وكنت قانعاً بهذا العيش راضياً به إلى أن التقيت بإلزي وتدلّخت في هواها ورغبت في الزواج منها ، ولا يخفى عليك أن الزواج يستلزم نفقات ونقوداً ، وإذ رأيت الارتباكات التي وقع فيها بعض زملائي بعد أن تزوجوا آثرت أن نؤجل زواجنا إلى أن يتبدل عسرنا يسراً .

وبعد حين قصير قابلت دوران مصادفة فأسرعت أذهب إلى حبيبة القلب أعرفها بالبطل الذي أنقذ حياة خطيبها المحبوب .

وأعجب دوران بإلزي وأخبرني أنه مسافر إلى جزائر الهند الغربية حيث يهتم فيها بمزارع واسعة ، وعرض على أن أساعده في العمل فرحبت بالفكرة لأنني كنت لا أزال ضعيف الرثتين من آثار غازات الحرب ، وقد سبق أن أشار على الطبيب بالعمل في الهواء الطلق .

وأعجبت إلزي بدورها بهذا الاقتراح فعقدنا زواجنا وسافرنا إلى جزر الهند الغربية .

وكانت مزارع دوران بديعة حقاً ، وكانت تدر محصولاً وافراً ، وكان موقعها موقِعاً جميلاً تحيط بها التلال من جهات ثلاث ، وكان الهواء عليلاً منعشاً سرعان ما بعث في النشاط والحياة المرحّة ، أما إلزي فكانت لا تقل عني بهجة بذلك الوطن الجديد .

وصمت هانشو قليلاً ونظر إلى الأرض ملياً ثم واصل حديثه فقال :

وكانت التلال المحيطة بالمزارع عبارة عن براكين كانت ثائرة ثم خمدت منذ خمسين عاماً ، وكان الكوخ الذي نقيم فيه لا يبعد إلا قليلاً عن « بدرو العجوز » ، وهو اسم أكبر بركان في الجزيرة وهو البركان الوحيد الذي كان ينفث بعض الدخان من حين إلى آخر .

ولكن بدرو العجوز كان خامداً لا يثور وقد مضى عليه نصف قرن وهو هادئ لا يبعث لهباً ولا حمماً .

وكانت المزارع مثمرة والعمل الزراعى فى الجزيرة كثير الحدوى والإنتاج . ومع ذلك فقد اشتريت من دوران النصيب الذى توليت أمره فيها . وبشمن بخس جدًّا ولست أنسى ما قاله لى عند ما فاتحته فى ذلك :
— أنت صديقى يا نند وأنت جدير بكل خير خصوصاً وأنت متزوج .
ولم أعبأ فى أول الأمر بتعليقه على حالتى ولكنى تذكرت فيما بعد معنى قوله إننى متزوج .

وصمت هانشو وسكت عن الحديث ، ولاحظ زميله فى السفر أنه أغمض عينيه كأنه يبعد من أمامه منظرًا سيئًا الذى ذكر ثم عاود سرد قصته قائلاً :

لقد لبثا ثلاث سنين يستغفلانى وأنا لا أدرى ! وأحسب إلى نفسى سعيداً سعيداً ! لقد كنت ألبث أوقاتاً طويلة خارج البيت أحاول إجادة فن الزراعة ولم أكن أدرى كيف إكانت إلزى تقضى تلك الأوقات فى غيبتى ، وكنت أهناً إذا رأيتهما مرحة راضية طروباً . . .
ولعلك تحذر ماذا كان يفعل هذان الاثنان معاً وأنا بعيد عن البيت أياماً .

لقد عرفت أول بادرة من الأمر حينما عدت ذات يوم مبكراً على خلاف عادتى فلما أن ذهبت إلى كوخنا أخبرنى الخادم بأن إلزى قد ذهبت إلى الكوخ الكبير فلم أعجب لذلك لأننا كنا نقضى مع دوران شطراً كبيراً من الوقت ويقضى هو فى كوخنا شطراً آخر ولذا رأيت أن أذهب وألحق بهما .

وإذا قاربت الشرفة التى كانا جالسين فيها سمعت صوت إلزى تتحدث فصعقت فى مكانى إذ بلغ إلى أذنى هذا الكلام :

— لا تقل شيئاً لنند إننى خائفة !

وضحك دوران ورد عليها بقوله :

— ليس ثمة ما تخافين منه : لماذا لا تقولين له فينتهي الأمر ؟
 — ولكنني أريد أن أستوثق .
 — ألم تستوثقي بعد . . . ؟
 وخفت صوت دوران بعدئذ فخيّل إلى أنه قد مال عليها وهو يقول :
 — لديك متسع من الوقت . .
 — إني أعرف ذلك ولكنني أرجوك أيها العزيز أن تبعث الطمأنينة
 إلى نفسي . . .
 وليثت جامداً في مكاني وكأن كلماتها مطارق تهوى على رأسي ،
 وسمعهما يتآمران ويقرران الذهاب إلى المدينة معاً بعد أن ينتحلا عذراً
 مختلفاً أمامي .
 ومضيت مشرد الذهن كأن صاعقة قد انقضت علي ، وهالتي أن
 أرى خيانة زوجتي وأعز صديق لي .
 وبدأت منذ تلك اللحظة أمقت دوران وأكره زوجتي ، وقد
 ذهبت بعد ذلك الحديث إلى كوخني وأخرجت مسدسي ورغبت في أن
 أضع حداً لهذه الخيانة على الفور ، ولكنني ما لبثت أن استعدت
 هدوئي وعولت على أن أظهار بأنني لم أعرف شيئاً من تدبيرهما وأن أصبر
 إلى أن يعودا من المدينة ثم أتدبر أمرهما .
 ولم يذهبا إلى المدينة في مدى أسبوع لأن سيارة دوران كانت
 معطلة وكان هذا الأسبوع فرصة جعلت أرسم فيها خطة القتل والانتقام
 دون أظهر أمامهما بأي مظهر يدلّهما على نياتي .
 وقد تمالكت نفسي حينما حضرا إلى ، تقول لي إلزي إنها مدعوة إلى
 حفلة في المدينة وإنها ستغيب ليلة أو ليلتين ، ويقول دوران إنه ذاهب
 إليها بدوره من أجل عمل ، ويقترح أن يصحب إلزي في ذهابها ويبيت
 في النادي إلى أن تنتهي من حفلتها فيصحبها عائداً . .

وأنصت إليهما باسمًا وسمحت لهما بالذهاب . . .
ولعل الطبيعة نفسها كانت تشترك معي في أحزان ذلك اليوم إذا
اكفهر الجو وتلبد بالغيوم فدعوت الخادم الوطني وسألته :
— هل في الجو زوابع قادمة ؟
فأجابني بقوله :

— لا . إنما هو بدرو العجوز ينفخ الشيطان من فوهته دخاناً يومين
أو ثلاثة . ومن يدري ربما يثور !
وهزرت رأسي وقلت له :

— أليس ذلك معقولاً فإن البراكين لا تثور بعد أن تخمد خمسين عاماً .
وزاد اكفهرار الجو في اليوم التالي إلى حد اختفت معه قمة بدرو
عن الأنظار ولكنني لم أعبأ بشيء من ذلك إذ كنت أفكر في دوران وإلزي .
ولبثت طوال المدة التي غاباها أتلاظي بنيران حقد وغيرة قاتلة ، ولم
يكن الويسكي الذي أشربه ليل نهار ليطنني من حدة غضبي وسخطي
وكان المسدس على مقربة مني دائماً . . .

وقبيل مساء اليوم الثاني من سفرهما كنت أجوس خلال المزرعة
لأنني لم أشأ أن أكون في البيت عند عودتهما ، وإذا بي أسمع صوت
السيارة قادمة بهما ، وقد أوقفها دوران قرب المزرعة وناداني ولكنني لم أجب
فنزلت إلزي أما دوران فاتجه شطر كوخه بحسبي فيه .
وخرجت من بين المزروعات وذهبت على الفور إلى كوخ دوران
والمسدس في يدي .

وسكت هانشو عن الحديث وهو شارد البصر كأنه يستحث ذاكرته ،
ومال المسافر نحوه وفتح فيه بالكلام لأول مرة منذ بدأ هانشو قصته :
— هل تريد أن تقول لي إنك قاتل . . .
— لقد كنت أريد ذلك !

وعاد هانشو إلى حديثه فقال :

وكان دوران يشرب إذ دخلت عليه الكوخ فحياني بتحية الأخوة
العادية ولكنني لم أجبه بكلمة ومددت يدي إليه بالمسدس ، فلما أن
رآه قال لي :

— لم هذا يا ندي ؟!

— سوف أقتلك ثم أقتل إلزي .

— ولماذا . . ؟!

— لا تطلب أي إيضاح فقد لبثنا طول الثلاثة الأعوام الماضية وأنما
تستغللاني وها قد جاء دور انتقامي .

— لا تكن غيبيا يا ندي فأنت مريض ، وقد حدث أن إلزي أحست

— ألم تحذر أحست بماذا — بتحريك الجنين في أحشائها . .

— جنين ؟! ..

وضحكك لهذه الكلمة كثيراً إلى درجة أنني استندت إلى الباب
كيلا أقع من كثرة الضحك .

— لن تعيش حتى ترى طفلك أمها . .

وحاول أن يبدي حركة فسددت إليه المسدس وقلت له :

— سوف تموت هنا والآن . .

ورفعت مسدسي أصوبه نحو صدره ولكن حدث في اللحظة التي
كدت أحرك فيها الزناد صوت انفجار عظيم هز أركان الكوخ بنا وتوهج
ضوء أحمر في الغرفة التي كنا فيها .

ونظر دوران من النافذة وقال :

— يا إلهي . . انظر !

ونظرت صوب إشارته فرأيت نهراً من الحميم المنصهرة ينحدر من
أعلى الجبل فقد ثار بدرو العجوز بعد طول الحمود !

وصاح بي يقول :

— أسرع فإن إلزى في كوخها . .

وجرى صوب الباب ولكنني سبقته إليه وسددت المسدس إلى صدره ومنعته من الخروج فقال لي :

— أتعني أنك تريد أن تتركها تموت .

— إنني أعني أنك إذا تحركت من مكانك شبراً قتلتك على الفور .

وثارت ثائرة دوران وجعل يتهددني مرة ويتوسل إلى أخرى ، ويذكركني أيام صداقتنا في أيام الحرب ، ولكنني لم أستمع له وبقيت أهده بالموت إذا تحرك إلى أن مضى الوقت الذي ظننته كافياً وعندئذ رفست الباب فانفتح وقلت لدوران :

— يمكنك أن تذهب الآن لإنقاذها .

وسكت هانشو ، فجعل صاحبه يتململ في مقعده ويسعل ويحدث حركة بغليونه ثم قال :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— هذا ما يعلمه الله فالذي أذكره أنني جمعت أعدو وأعدو على قدر ما تمكنني قدامى ثم وقعت على الأرض ، ومنذ تلك السقطة لا أعرف شيئاً .

— إذن فقد تركتهما بين النيران ؟

وأجابه هانشو بهزة من رأسه ولكنها لم تقنع الرجل فسأله :

— إذن كيف . . . ؟ إنني لا أستطيع الفهم . .

— لقد فقدت ذاكرتي ولست أدري كيف عدت إلى إنجلترا . .

وحدث بعد عودتي بزمان لا أعرف مقداره أن قابلت إلزى . .

وقاطعه الرجل بقوله :

— ولكنك كنت تقول إنك . . .

فأجابه هانشو :

— أجل فقدت ذاكرتى ولم أعرفها إنما هى التى عرفتني ، وأخذتني إلى مسكنها الحقيقى وجعلت تعيد إلى ذاكرتى المفقودة رويداً رويداً .
وقد علمت أن دوران قد أنقذها فى تلك الليلة وقد كان الأمل فى نجاتها ضئيلاً جداً ، ولكن دوران بطل نبيل كما أسلفت لك فضحى بحياته فى سبيل إنقاذها . ومات شهيداً مروءته ونبله إذ دهمته سيول المواد المنصهرة الملتهبة فراح ضحية وفاته وإخلاصه وطهارة قلبه .

ويظهر أن إلزى قد روعت بحادث انفجار البركان وثورانه ففقدت ذاكراتها هى الأخرى فهى لا تدرى كيف عادت إلى إنجلترا ، وقد وضعت طفلها وأخذته إحدى الجمعيات الخيرية لتعنى به وتفرغت هى لكسب قوتها من الحياكة فى أحد المصانع وبقي أن نجد ما نعول به طفلنا . . . »

ونظر الرجل إلى هانشو قائلاً :

— هل قلت طفلنا . . . ؟

— أجل . لقد كنت مخطئاً فى كل أوهامى وظنوني فلم تكن ثمة ريبة بين دوران وإلزى وقد كانا صديقين وفيين ، فقد رغبت إلزى أن يصحبها دوران إلى أحد الأطباء لأنها كانت تحس بتحرك الجنين فى أحشائها ، أما سبب عدم إخبارى بذلك وأنا زوجها فهذا ما يعلمه الله ، وإن كانت قد قالت لى إنها أرادت أن تتأكد قبل أن تحمل إلى هذا النبأ العظيم ورأتني مشغولاً فى العمل فلم تشأ أن تبعدنى عنه لسبب قد يتضح أنه لا يرتكز على أساس . وهذا هو السبب فى وجوب حصولي على هذا العمل بأية حال من الأحوال ، إننى أنشد العمل من أجل إلزى ومن أجل الطفل . . .

ووقف القطار فنزل الرجل واختفى فى الظلام ونزل فى أثره هانشو .

وفي صباح اليوم التالي كان هانشو خارجاً من باب مكتب الجريدة في اللحظة التي كان زميله في سفره بالأمس داخلاً فنظر إليه هانشو وقال :
 — لقد عينوني في العمل . .
 ولمعت عينا الرجل وقال :

— هذا جميل وسوف تسر إلزى بذلك . .
 وبدأت على هانشو أمارات القلق ثم علت فيه ابتسامة وقال لمحدثه :
 — لم قلت لى إنك أيضاً كنت ذاهباً من أجل هذا العمل . . ؟!
 — إنها كانت مجرد تجربة فقد رغبت أن أرى مبلغ قدرتك على التقدير والوصف .

— أما أنا فقد عرفتكم يا مستر جراندسون من أول وهلة وأدركت أنك مدير الجريدة ولذا قررت أن أقنعك وأحملك على استخدائي ، وإذ عينتني في الوظيفة فهذا دليل على نجاحي ، أما إلزى فلا وجود لها بالمرّة ، إنما سوف تظهر في روايتي القادمة .
 ونظر إليه جراندسون دهشاً مذهولاً .

أما ند هانشو المؤلف القصصي الذي عين في ذلك اليوم رئيس تحرير القسم الروائي في جريدة نورثرن نيوز، فقد حياه مبتسماً ومضى في سبيله . . .

قلب الوقور

وقعت حوادث هذه القصة فى زمن غابر وعهد غير قريب من عهود الولايات المتحدة ، وقد كنت حينذاك فى بلدة مارشال من أعمال ولاية تكساس ، وبدأت أولى حوادث الرواية ساعة أن دخل رجل غريب يلبس السواد ويحمل كتاباً مجلداً إلى ردهة الفندق الذى كنت ألعب فيها البوكر مع صديقى وزميلى ريد براون وبيل ماكاى .

وكان الرجل يلبس قبعة سوداء عالية ، وبعد أن نظر إلينا ملياً تقدم إلى مائدتنا يقول بأدب :

— هل تأذنون لى أسها السادة أن أقدم نفسى لكم ؟ إننى أدعى أبنازار جونز من حملة الإنجيل ودعاته وقد هبطت مارشال كى أساعد بعض مواطنيكم على سلوك سبل الحق والرشاد . وإنه ليسرنى أن أدعوكم جميعاً إلى سماعى بمجرد أن أجد مكاناً لائقاً ألقى فيه عظامى . هل تتفضلون بإرشادى عن مكان أستطيع اتخاذه كنيسة مؤقتة ؟

وشفع سؤاله بنظرة ألقاها على بيل الذى كان رائق المزاج فى تلك اللحظة . لأنه كسب منى قبلها بقليل ما يوازى مرتبى شهرأ كاملاً وربح من ريد مبلغاً يساويه ، وأجابه بيل بقوله :

— لى كوخ خال فى الطرف الثانى من المدينة ، ولريد آخر على سفح التل القريب من هنا وكلاهما تحت تصرف مبعوث السماء . أليس كذلك يا ريد ؟

وهز ريد رأسه علامة الإيجاب وقال الراهب :

— إننى شاكر جداً . وسوف أتخذ من كوخ المدينة كنيسة للوعظ . ومن كوخ التل مأوى أبيت فيه . . هل هناك آثام كثيرة تقترف فى مارشال ؟

فأجبتته :

— إن فيها من الآثام ما لا يرفعها إلى مصاف القداسة . .

— إذن فسوف تحضرون لسماع عظامى ؟

فأجبتناه بأننا سوف نفعل فقد أعجبنا بمظهره ، وعزمنا على مساعدته فى مهمته النبيلة . .

فقال :

— إننى موقن بأن من حقى أن أدعوكم إخوانى فهاتوا أيديكم أصافحكم . .

ومددنا إليه أيدينا فصافحننا واحداً بعد الآخر وقد أخذ بيلى بهذه المظاهرة فقال له مشيراً إلى ما ربحه منا منذ قليل :

— إذا كنت فى حاجة إلى نقود فإن لدى بعضها الآن فاطلب ما تريد !

وابتسم جونز وقال :

— فى الحق إننى فى حاجة إلى أربعة جنيهات أكون ممتناً لو استطعت أن تقرضنيها دون أن أسبب لك أى ارتباك . وإذا كانت تلك النقود ملكاً لنا منذ حين قريب ، فقد أجبت أنا وريد نياية عن بيلى بالقبول ، وقدم بيلى المبلغ إلى الراهب فأخذه وانحنى شاكراً وانصرف .

وقد كانت مارشال فى ذلك الحين بلدة صغيرة قليلة السكان بحيث يعرف أهلها بعضهم البعض جيد المعرفة . وقد قوبل الراهب فى أول أمره ببعض السخرية ولكنه لم يلبث فى البلدة أربعة أسابيع حتى كون

لنفسه شعباً يتتبع عظامه باهتمام زائد . وفي خامس يوم أحد بعد هبوطه مارشال كان يعظ جمهوراً لا بأس به في ذلك الكوخ المهجور ، وكان منبره برميلاً فارغاً ومقاعد المستمعين من الصناديق القديمة والخشب البالي والأحجار وما شابهها .

وفي يوم الاثنين التالى دلف إلى ردهة فندق مارشال الوحيد رجل طويل القامة عريض المنكبين يلبس سروال رعاة البقر ويتمنطق بحزام فيه مسدسان هائلان ، وقد غطى فخذه بفراء مزركش يعلو شفتيه شارب أسود مفتول وكانت تلوح عليه أمارات تبعث الريبة والخوف إلى الصدور . وذهب الرجل إلى البار تَوَّأ ثم ضرب الخوان بمقبض مسدسه الأيمن فأقبل ويلى صاحب الحانة يسأله ما يريد بعد أن وضع في متناول يده مسدساً كبير الحجم .

وقال الطارق الغريب :

— ضع مسدسك جانباً وهيا اعدد كؤوس الخمر للجميع .

وإذ سمعنا هذه العبارة اقتر بنا لنرى ما الخبر ، وصاح الرجل بصاحب

الحانة يقول :

— أجل ليشرّب جميع من بالمكان على حسابي .

وغمغم ويلى يقول :

— الجميع . . ؟ !

ووضع الرجل يده في جيبه فأخرج رزمة من أوراق النقد وضعها فوق

الخوان وقال :

— هيا يا صديقي خذ ما تريد ونفذ ما أمرتك به .

وأخذ ويلى ثمن خمس وثلاثين كأساً من الويسكى وراح يجهز

الكؤوس ، فلما أن صفت جميعاً أمسك الغريب كأسه ورفعها إلى فمه

بيد ، وأعاد رزمة الأوراق المالية إلى جيبه بيد أخرى ، ثم قال :

— هيا اشر بوانخبى . . . اشر بوانخب هنرى داوسن . .

ولعب داوسن القمار فى حلقة الحانة فربح ربحاً ليس بالقليل إذ كان شديد البراعة فى اللعب ، ثم دعاه ويلى صاحب الحان إلى خلف البار ليفضى إليه بمسألة أهمته وشغلت باله منذ أسبوعين ، فلما أن خلا به قال له :

— إننى فى حاجة ، يا مستر داوسن ، إلى رجل يؤدى لى عملاً يسيراً ، وإننى أرى فىك الكفاية والجرأة اللازمين ، فهل تقبل أن تؤدى ما أريد قضاءه لقاء عشرين جنياً ؟
— وما هى هذه المهمة . . ؟

— لقد هبط هذه البلدة راهب لو بقى فيها للحققت بى خسارة طائلة وانتهى بى الأمر إلى إغلاق حانتى وإفلاسى ، فى ليلة أمس ، الأحد ، لم يكن لدى فى البار سوى ستة زبائن . وقد ذهب الباقيون إلى سماع عظاته .

— لقد فهمت ، وما الذى تريدنى على أن أفعله ؟ !

— أريد أن تحمل هذا الراهب بعيداً عن هذه البلدة ، أريد أن تذهب على الفور إلى كوخه فتقتلعه من فراشه وتردفه على جوادك وتسرع به إلى محطة السكة الحديدية وتركبه القطار قبل أن يخف إليه واحد من أتباعه ، فهل فهمت غرضى ؟

— أجل . وهل هو قوى هذا الراهب ؟ !

— إنه لا يقل قوة عنك . .

ونزع داوسن مسدسيه من مكانيهما وألقى بهما على البار وهو يقول :

— لا داعى لاستعمال هذين مع أحد مبعوثى السماء ، إننى ذاهب

إليه الآن يا مستر ويلى ، وأنتم أيها السادة من شاء منكم أن يشاهد كيف يجرى مبعوث السماء بسرعة ستين ميلاً فوق الأرض فليأت معى . .

وذهب الحاضرون جميعاً في أثره ، وقد ساءنى أن يطرد جونز من المدينة على هذا النحو ، ولكنى رأيت ألا جدوى من احتجاجى فلحقت بالجمع صامتاً لأرى النتيجة .

ولما وصلنا إلى كوخ الراهب وجدناه مظلماً فأيقنا أنه قد نام ولكن داوسن تقدم إلى الباب فرفسه بقوة وقال :
— اخرج إلينا أيها الراهب الوقور .
ولم يكن ثمة مجيب .

وعاد داوسن يرفس الباب بعنف دون مجيب فأسخطه هذا الصمت وجعله يركل الباب بقوة حتى خلعه ودلف إلى الكوخ يبحث عن الراهب صاحباً لا عناء ولكنه لم يجده في فراشه .

وعاد داوسن إلى الحانة خائب المسعى وتبعه الرفاق آسفين على فوات فرصة للهزؤ والسخرية ، وعدت مسروراً لنجاة القس المسكين من قبضة ذلك الشرير العاتى .

وإذ رأيت نفسى بلا عمل في صباح اليوم التالى فقد يئمت شطر كوخ جونز فوجدته جالساً على درج الكوخ يقرأ ، ولكنه ألقى الكتاب من يده حينما أقبلت عليه ثم أحضر كرسيين من صنع يديه فجلسنا عليهما وسألته عن سبب الكسر الذى رأيته في بابه ، دون أن أعلمه بأنى واقف على مسأله فقال :

— لقد كسر هذا الباب ليلة أمس إذ حضر إلى هنا سكران ثم في صحبة جمع من رفاقه الثمانيين ولما أيقنت أن شرّاً حفزهم إلى الهجى إلى فى تلك الساعة ، اختبأت بين الأعشاب إلى أن مضوا ، فهل تعرف سبب شخوصهم أمس إلى كوخي ؟

وقد أنبأته بحقيقة الأمر معتقداً أنه سوف يفرع لذلك الخبر ولكنه

أجابني مبتسماً وهو يقول :

— إنك تدهشني !! هنرى داوسن .. يريد أن يخرجني من البلدة ؟! وبدون سلاح أيضاً ؟! هه . اسمع يا أخى ، إننى أدعوك للحضور فى يوم الأحد المقبل إلى الكنيسة لتسمع ما سوف أقوله علناً عن داوسن هذا . إننى لا أدعو إلى تعاليم الإنجيل فحسب ، بل أقاتل من أجلها أيضاً . إذا جاء داوسن إلى هنا مرة أخرى فسوف أؤدبه وأعلمه بالقوة كيف يحترم الدين . لا تخش على يا أخى هاينز إننى رجل قوى .

أمسك جونز بحدوة حصان كانت ملقاة بجانبه فضغط عليها بيديه حتى كسرها ، وأيقنت حينذاك أنه لا بد منتصر على ذلك الدعى إذا تقابلا فى عراق ذات يوم ، وما كان ذلك اليوم بعيداً .

وحدث فى مساء الجمعة حادث لا بأس من إيراده لأنه زاد فى عداوة جونز لداوسن ، فقد حدث أثناء أن كان الأخير يلعب الورق فى الحانة ويربح نقود الحاضرين شأنه فى كل مساء ، أن اتهمه لاعب يدعى كونر بالغش وادعى أن داوسن يخفى « آساً » خامساً ، وهم كونر بسحب مسدسه ولكن داوسن كان أسبق إلى إطلاق الرصاص فأصاب قلب كونر وقاضت روحه بعد قليل .

وقد برح داوسن الحانة بعد الحادث منعاً للشغب وذهب أحد أقارب القتل يبحث عن الشريف ، وقد أوفدوني لأستدعى الراهب اليسرى عن روح الجريح قبل أن يلفظ نفسه الأخير ، فأسرعت إليه فوجدته فى فراشه ، وما كاد يرانى حتى ابتدرنى بقوله :

— من الذى أصيب ؟

فظننت أنه سمع الطلق النارى فأجبتة :

— إنه فتى يدعى بيل كونر وقد طلب إلى أن أدعوك إليه فمعجل بربك وإلا وصلنا بعد فوات الوقت ، أما قاتله فهو ذلك المدعو داوسن .

وذهبنا إلى الحانة بعد أن لفظ كونر روحه فعاد الراهب أدراجه ساخطاً متوعداً ، وبقينا نفكر في إجبار داوسن على مبارحة الولاية ولكننا عدنا فرأينا أن ذلك ليس من شأننا ، وقد دفنا كونر في اليوم التالي وكان تابوته من صنع يدى الراهب فأثر ذلك في نفوسنا تأثيراً بليغاً .

وأقبل الشريف بعد دفن كونر بقليل وأنشأ يبحث مع رجاله عن داوسن بلا جدوى ، وقد بث عيونه وأرصاده طول النهار والليل في طرقات المدينة وظاهرها وحول الحانة ولكنهم لما لم يعثروا على طريقتهم عادوا في اليوم التالي وكان يوم أحد إلى مركز الولاية يائسين من إيجاده موقنين بأنه لا بد أن يكون قد تخطى الحدود إلى المكسيك هارباً لن يعود .

وكانت عظة ذلك الأحد عن القتل والمقامرة والخداع في اللعب والخارجين على القانون وكيف أن العقاب سوف يدركهم أينما ذهبوا .

وعقب القس على ذلك بقوله : إن رجلاً يدعى داوسن قد هددنى بحملى على الخروج من هذه البلدة أيها الإخوان ! وإننى أقول يا إخوانى بأنه إذا عاد هذا الرجل إلى مارشال ونازلنى وجهاً لوجه بلا سلاح فسوف أضربه « علقه » لا ينساها إلى الأبد .

على أنه لا يجدر بنا أن نتحدث هنا عن هذه الشئون الأرضية طويلاً ، فلنتكلم عن أمر أكبر أهمية أريد معونتكم عليه . إذ يجب أن تكون لنا كنيسة أكبر وأحسن من هذه ، ولقد وجدت أن تكاليف أخشابها لا تزيد على ٤٠٠ جنيه فإذا اكتبتم بهذا المبلغ اشتريت الخشب اللازم وبنيت الكنيسة بيدي .

وكان يتكلم بهيئة حملتنا جميعاً على الوقوف نعا هذه على جمع المبلغ المطلوب في يوم الأحد التالي .

لم يمض يومان حتى عاد داوسن إلى الظهور مساء في الحانة وقد طلب

دوراً للحاضرين جميعاً ثم دعاهم بعد الشرب إلى الذهاب معه إلى كوخ الراهب ليريهم كيف يؤديه على ما قاله عنه أثناء عظة يوم الأحد الماضي . وقد خفت على جونز من أذى داوسن فأسرعت إلى كوخه كي أحذره في الوقت المناسب فلم أجده فيه وإن كنت قد وجدت شمعتين موقدتين قرب النافذة ، وقد أيقنت أنه ربما ذهب إلى زيارة بعض مريديه وترك النور في الكوخ ليهتدى إليه في الظلام .

وأقبل داوسن بعد قليل يتبعه جمع غفير وقد ركل الباب بعنف يلهعو جونز إلى قتاله يداً ليد كما وعد بذلك وهدد ، ولكنه لم يسمع مجيباً فجعل يطأ الرصاص على باب الكوخ حتى خلع القفل ثم دلف إلى الداخل يبحث عن الراهب ، فلما لم يجده عاد ورفاقه إلى الحانة .

وقد جاء جونز بعد انصرافهم فدهش لحالة كوخه ولكنني أفهمته بما حدث وأخبرته أنه من حسن حظه أنه لم يكن موجوداً لأن داوسن لو رآه لما تعفف عن قتله بالرصاص .

وتوالى الحوادث بعدئذ بسرعة غريبة وحدث في يوم الأحد التالي أن جاء أحد مفتشى البوليس فقبض على جونز أثناء جمعه لمبلغ الأربعمائة جنيه التي وعد بها لشراء خشب الكنيسة الجديدة ..

وثارت ثائرة المصلين لهذا العمل المزرى بكرامة رجل الدين ولكن رجل الشرطة وقف يشرح لهم الأمر وبين لهم أن راهبهم الوقور ليس سوى لص ومحتال جرى وأنه إنما ضحكك على ذقونهم بادعاء الرهبنة وخذعهم باسم الغيرة على الدين ..

وجن جنون الحاضرين إذ سمعوا أن جونز ارتكب عدة جرائم قتل أيضاً فهجموا عليه واستخلصوه من بين يدي مفتش البوليس ثم شنقوه بأنفسهم وعلقوه في إحدى الأشجار ..

وبعد أن شتق ذهبنا إلى كوخ الراهب نفتشه ، وكم كانت دهشتنا
وذهولنا بالغين حينما وجدنا في ركن أحد صناديقه ملابس رعاة البقر
والمسدسين الهائلين والشارب المفتول وسائر الملابس التي كان يبدو فيها
هنري دأوسن الذي لم يره واحد من سكان البلدة في الوقت الذي كان
يظهر فيه القس الجليل . . !

المزيف

أليس من المؤلم أن يكون مثل هذا الرجل الشحيح الخسيس مالكاً
لمئات الألوف من الجنيهات وهو يخزنها حيث لا يستفيد منها أحد شيئاً؟
كان إسماعيل يتكلم بكلمة وهو يتحدث عن عمه قاسم بك ويشكو
بخله وتمتيره لصديقه عبد الرؤوف .

وأصغى إليه عبد الرؤوف مشفقاً واكتفى بأن هز رأسه قائلاً :
وماذا تريد ؟ . . . إن للبخل لذة تفوق لذة التبذير .

— نعم . أعرف هذا . ولكنك لا تعلم أن لي نصيباً كبيراً في ثروة
عمى . . . ولو أنى لا أستطيع الحصول عليها . . . لقد مات أبى وأنا ما زلت
قاصراً فتولى عمى الوصاية على ولما بلغت رشدى وحاسبنى على أموالى لم
أفهم شيئاً بل تخالفت معه وأنا أحسبه أميناً في وصايته . . . ولكننى علمت
أنه اغتال من ميراثى مبالغ طائلة . / وقد تصرف بدهاء كبير حتى إنى
لا أستطيع أن أثبت ما سلبنى إياه . . .

— لعلك تهمة بما هو برىء منه ؟

— أنت لا تعرفه . . إنه على الرغم من غناه حقير النفس أدناً من
للصوص والمجرمين واو استطاع أن يسلبنى ما فى جيبى لما تواني لحظة واحدة .
— أو لم تحاول أن تتفاهم معه ؟

— وكيف السبيل إلى التفاهم وهو أخبث من إبليس الرجيم ؟

— وهل علمت مقدار ما اغتاله من مالك ؟

— لقد بحثت وحسبت إيراد أموالى فى المدة التى تولى فيها الوصاية . .
 فعلمت أنه سلبنى ما يقرب من الألف والأربعمائة من الجنيهات .
 ولكن لا سبيل إلى إثبات ذلك ، وليس لى إلا أن أراه يتنعم بما لى وأنا أتلمظ
 حنقاً وكهداً دون أن أستطيع مطالبته بدينهم واحد . . إنه يعبد المال . ويسمى
 إليه من كل وسيلة . . ولو كانت وسيلة منكرة غير مشروعة .

° ° °

يجدر بنا قبل أن نسترسل فى الحديث أن نصف للقارئ هذين الصديقين
 اللذين طلعت عليهما شمس القصص وهما جالسان فى أحد مشارب القهوة
 فى هليوبوليس يتحدثان .

كان إسماعيل شاباً ضعيف الإرادة غير ذكى ولكنه غير غي .
 مات أبوه عن ثروة طائلة ولكن عمه عرف كيف يتصرف فى مدة الوصاية
 فيستولى على أكبر قدر من هذه الثروة ولا يترك للوارث الشرعى غير فضلات
 لا تسمن ولا تغنى من جوع .

ولم يكن إسماعيل ممن يعرفون كيف يجاهدون ويصارعون فى الحياة .
 لذلك رضى بما قسم له واستسلم لنصيبه وكان كل ما يعمله أن يشكو
 تصرف عمه وسوء فعله إلى أصدقائه . . ولم يكن أولئك الأصدقاء ليهتموا
 بشكواه ، وكثيراً ما صارحوا إسماعيل بأن يكف عن التذمر فإن لكل
 إنسان من همومه ما يكفيه .

ولكن عبد الرؤوف كان صديقاً مخلصاً فهو يستمع شكوى الشاكى
 ويواسيه فى نكبته .

ولم يكن عبد الرؤوف بالسعيد الحال بل كان بائساً صارعته الحياة
 فصرعته وخلفته معدماً . وقد اشتغل فى أكثر المهن والوظائف وغامر فى
 مشروعات جملة فخرج منها جميعها صفر اليدين .
 ولذلك كان فى اليوم الذى قابل فيه إسماعيل نائر الأعصاب ساخطاً

متمرداً على الأقدار ، وعلى الرغم من ذلك جلس يستمع إلى شكوى صديقه وهو يصغى ويفكر .

وعلى حين فجأة طرأت بباله فكرة سريعة أوحى بها إليه تلك الحملة الأخيرة التي اختتم بها إسماعيل حديثه وهي : « وأنه يعبد المال ، ويسعى إليه مستعيناً بكل وسيلة . . ولو كانت وسيلة منكرة غير مشروعة » .

صمت عبد الرؤوف حنيئة وكأنما جالت بذهنه خطط وأفكار مبهمه مضطربة ما لبثت أن صفت واستقرت في صورة واضحة فبرقت عيناه وأشرق وجهه وقال وهو يقبض على يد إسماعيل فجأة : « اسمع يا إسماعيل ماذا تقول فيمن يأتيك بالآلف والأربعمئة جنيه التي سلبك عمك إياها ؟ » ونظر إليه إسماعيل باهتاً وقال : « إنك تحلم بالمستحيل » .

ولكن عبد الرؤوف قال لصديقه : « لا أريد منك إلا عشرة جنيهات تكون طعاماً أتصيد به مالك الضائع فهل في وسعك أن تأتيني بها ؟ » .

وقال إسماعيل : « أجل . ولكن . . . » .

فضحك عبد الرؤوف وقال : « ولكنك تخشى أن تضيع هذه الجنيهات العشرة . . . أليس كذلك ؟ لنفرض أنها ضاعت . . فلا بأس عليك إذا كانت نحسائرك ١٤٠٠ جنيه وعشرة جنيهات ؟ ! وكل ما أريده أن تكون بين هذه الجنيهات العشرة ورقة مالية ذات خمسة جنيهات جديدة لم تمسها يد ولم يعبت بها التداول » .

* * *

مرت على هذه المقابلة بضعة أسابيع حدثت فيها أمور غير عادية في منزل قاسم بك .

وكان قاسم بك يسكن شقة أرضية في منزل يمتلكه بشبه . . ومع أن هذا المنزل شامخ البناء عديد الطبقات فإنه لم يرض إلا أن يقيم في الشقة

الأرضية التي يأنف الخدم من سكناها وذلك كيلا يضيع عليه إيجار إحدى شقق المنزل .

ولم يكن ينقص حياة قاسم بك إلا أمر واحد .. ذلك هو « بدرون » أرضى فى المنزل مرت به سنون طويلة دون أن يسكنه أحد . . وكان هذا البدرن مظلماً رطباً لا يرضى أحد بسكناه . ولذلك كان قاسم بك يشتد حزناً وكمداً كلما مر شهر جديد وهو محروم من إيجار البدرن .
وأخيراً أقبلت الأيام على قاسم بك وتقدم فتى يطلب استئجار البدرن فاستأجره بمبلغ زهيد .

ومرت أيام عديدة وبدأ قاسم بك يرتاب فى أمر الساكن الجديد . فقد كان يراه يدخل مسكنه ويغلق بابه ويبقى فيه يوماً بطوله دون أن يخرج منه وإذا خرج خرج متلصصاً متسللاً كأنه يخشى أن يكون هناك من يترقب خروجه أو يترصده له .

وكلما جاء من الخارج جاء يتلفت خلفه فى ذعر كأنه يحسب حساب عيون وجواسيس تفتنى أثره .

أهاجت هذه الحركات فضول قاسم بك فترقب دخول الساكن الجديد ولبت هنية ثم سار إلى باب مسكنه ونظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً .
وأصغى فسمع صوت آلة صغيرة تدور وتدوى بانتظام فزاد فضوله وما لبث أن طرق الباب .

وسكت صوت الآلة ومرت فترة سكون وأعاد قاسم بك الطرق ففتح الساكن الباب وهو شاحب الوجه مضطرب الأعضاء وقال فى فزع :
« ماذا تريد ؟ »

وزادت ريبة قاسم بك فدخل المسكن وفى أثره الساكن . ونظر حوله فرأى أوراقاً وألواناً وریشاً وأوانى فيها سوائل ورأى على المائدة آلة ميكانيكية تشبه الآلة الكاتبة .

ولم يفهم سر ما يرى وسأل الساكن : « ما هذا الصوت الذى يصدر من عندك ؟ »

وتلعمم الفتى ووقف بجوار بين قاسم بك وبين الآلة الميكانيكية ولم يحر جواباً .

وازداد فضول قاسم بك وقال : « ويخيل إلى أن وراء الآلة ما وراءها . . ما هذا الذى تحاول إخفاءه ؟ »

ثم تقدم إلى الأمام فصاح به الفتى : « فى عرضك يا قاسم بك . . لا تفضحنى !! »

وزادت دهشة قاسم بك واقرب من الآلة فرأى ورقة بارزة منها . وجذبها فإذا بها ورقة مالية ذات خمسة جنيهات جديدة كأنها خارجة من دار الضرب فى تلك اللحظة .

وقاها بين يديه فلم يقدّم عليه شك فى أنها ورقة مزيفة . ولكنها كانت متقنة التزييف لا فرق بينها وبين الورق الحقيقى .

وسقط الساكن على قدميه وأخذ يستعطف قاسم بك أن لا يبلغ أمره للقضاء وأن يعفو عنه .

ولكن قاسم بك أخذ يهذه ويتوعده والفتى يبكى ويشكو له الفقر ونخبه بأنه لم يعتمد على التزييف إلا بعد أن ضاقت به الدنيا بما رحبت . . وأنه لن يؤذى أحداً بهذا التزييف لأنه اكتشف طريقة جديدة يزيف بها الأوراق المالية فلا يدرك سر تزييفها أحد حتى صراف البنك الأهلى نفسه . وما ذلك إلا لأنه اطلع على سر صنع الورق والحبر والألوان التى تصنع منها الأوراق المالية .

وكان الفتى يستعطف ويتحدث وقاسم بك يقلب الورقة بين يديه فيزيد دهشة لدقة صنعها وعدم اختلافها عن الأوراق الحقيقية .

وقال الفتى : « إننى فقير بائس وكل ما أستطيع عمله أن أخرج

كل أسبوع ورقة مثل هذه وهي لن تؤثر شيئاً في أعمال البنك الأهلي فليس في عملي أى جرم أو أى أذى يلحق بالهيئة الاجتماعية »
 وذهل قاسم بك طويلاً وقال : « وإذا لم تكن فقيراً هل كان في وسعك أن تصنع كثيراً من هذه الأوراق ؟ » .

وتنهى الفتى وقال : « لا تسخر بي يا سيدى . . إن صنع الأوراق فن مثل باقى الفنون وقد حذقتة دن سواى من سكان العالم ولكنى قانع بحالى ولو أن فى استطاعتى أن أحصل على ملايين الجنيئات » .
 فسأله قاسم بك فى لطفة :
 — « وكيف ذلك ؟ »

فأجابه : « لو كنت صاحب ثروة لبحثت بما كينات كبيرة وأدوات كاملة فكان فى وسعى أن أصنع فى كل يوم خمسين ورقة من هذا النوع » .
 وأخذ قاسم بك يضرب أخماساً فى أسداس ويحسب . ويلمدم .
 « مائتان وخمسون جنيهاً فى اليوم أى سبعة آلاف وخمسمائة جنيه فى الشهر أى ٩٠ ألف جنيه فى السنة !! » .

ودار رأس قاسم بك وقد ذهل عندما علم أن فى العالم من يستطيع أن يصنع فى السنة تسعين ألف جنيه فلا تمر عشر سنوات حتى يكون لديه مليون جنيه تقريباً !! ..

وخطرت له خواطر رهيبة ، مضطربة ، متناقضة ، وكان الفتى لا يزال يستعطف ويرجو .

ومرت ساعات طويلة . . خرج بعدها قاسم بك وأمر الفتى أن ينتظره بعد أن وعده بأنه لن يبلغ أمره للبوليس وبعد أن هددته بأنه « يوديه فى داهية » إذا حاول الفرار .

وذهب قاسم بك إلى دكان مجاور وطلب صرف الورقة فقبلها صاحب

الدكان بين يديه ثم أودعها صندوقه وأعطى قاسم بك خمس ورقات من فئة الجنية .

ولكن قاسم بك طلب صرفها فضة فلم يجد الرجل عنده فضة كافية فاستردها قاسم وسار إلى أحد الصيارفة .

وعرض عليه الورقة يسأله عن حقيقتها قائلا إن بعض الناس يطلب صرفها وهو يخشى أن تكون مزيفة .

ولكن الصراف قلبها وفحصها ثم أعادها إليه قائلا : « إنها ورقة صحيحة لا ريب فيها » .

وتجراً قاسم بك فسار توجاً إلى البنك الأهلي وأعطى الورقة للصراف طالباً صرفها .

وقد عمل ترتيبه على أن يحفظ لنفسه خط الرجعة فإذا اتهمه الصراف بأنها مزيفة قال في الحال إنه أخذها من ساكن في منزله فخصم منها قيمة الإيجار وأعطاه باقيا .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل فقد فحصها الصراف ثم صرفها له .

وأراد أن يزداد تأكيداً فقال للصراف مازحاً : « لقد أخذت هذه الورقة من أحد السكان وخشيت أن تكون مزيفة ولذلك جئت أصرفها من البنك » .

وأعاد الصراف فحصها ثم ضحك وقال : « إنها ورقة صحيحة وباليك عندي ألفاً منها !! » .

• • •

عاد قاسم بك إلى المنزل وقد سبح في عالم التصورات ورأى نفسه من أصحاب الملايين وعشرات الملايين .

واختلى بالساكن ساعات طويلة قرر بعدها القرار على أن يدفع له

قاسم بك ١٤٠٠ جنيه يشتري بها الماكينات والأدوات اللازمة لإنشاء مصنع كبير يخرج في كل يوم مائة ورقة من فئة الخمسة الجنيهات . على أن يأخذ الفتى عشرين في المائة من الإيراد والباقي يأخذه قاسم بك . ومرت أسبوع طويل تمت فيه المفاوضات والصفقة . وفي ختام الأسبوع خرج الفتى من المنزل وفي جيبه مبلغ الألف والأربعمائة جنيه !!

* * *

وفي القهوة نفسها تقابل إسماعيل وعبد الرؤوف . وقال عبد الرؤوف : « إذا جئتك بالألف والأربعمائة جنيه فكم تدفع لي منها ؟ » فأجابه إسماعيل وهو يحسب صديقه بمزح : « النصف » . فوضع عبد الرؤوف يده في جيبه قائلاً : « إذن فهيا نقسم » . وزاغت عينا إسماعيل وشحب لونه وكاد يفقد رشده عندما أخرج عبد الرؤوف رزماً ضخمة من الأوراق المالية وأخذ يفتسمها معه !! أما قاسم بك فلا يزال ينتظر عودة الساكن من أوربا ومعه الأدوات والجهازات والماكينات !!

في سلسلة **اقرأ**

المزيد في مثل هذا الموضوع

- أحلام شهرزاد
- شاعر ملك
- سيدة القصور
- قطر الندى
- فارس بن حمدان
- عنبرة بن شداد
- الشاعر الطموح
- خاتمة المطاف
- شجرة الدر
- مرح الوليد
- عذراء الأندلس
- بنت يزيد
- قصر الرشيد
- للدكتور طه حسين
- للأستاذ علي الجارم
- للأستاذ علي الجارم
- للأستاذ محمد سعيد العريان
- للأستاذ علي الجارم
- للأستاذ محمد فريد أبو حديد
- للأستاذ علي الجارم
- للأستاذ علي الجارم
- للأستاذ محمد سعيد العريان
- للأستاذ علي الجارم
- للأستاذ أحمد الصاوي محمد
- للأستاذ سامي الكيالي
- للأستاذ طه الحاجري

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

- ليلي العفيفة للأستاذ عادل الغضبان
- بنت قسطنطين للأستاذ محمد سعيد العريان
- عيون معصوبة للأستاذ محمود كامل
- قلوب معذبة للأستاذ قدرى قلعجي
- دماء وطين للأستاذ يحيى حقي
- أنات الساقية للأستاذ عبد الله القرشي
- عودة المفقود للأستاذ حسن رشاد
- قلب عذراء للأستاذ إبراهيم المصري
- نفوس تتكلم للسيدة وداد سكاكيني
- صنيعه الشيطان للأستاذ حسن رشاد
- عروسة على الرف للسيدة ضوفى عبد الله
- من يوميات فتاة عصرية للأستاذ حسين شوقي
- الجاحمة للسيدة أمينة السعيد

دار المعارف بمصر

تقدم للمؤلف الأستاذ طاهر الطناحي

● معارك السيف والقلم

قصص مشوقة جذابة وصور ناطقة حية تجلو حياة الدولة العباسية في عصرها الذهبي ، نسجها الكاتب من حقائق التاريخ الاجتماعي والسياسي في أسلوب رشيق بعيد عن الاستطراد التاريخي الممل ، وهي توضح معالم ذلك العصر بما تميز به من أخلاق وعادات وحياة اجتماعية وفنية . إنها قصص مشاهير القادة والسياسيين وكبار الأدباء الذين عاشوا في هذا العصر الزاهي الممتلئ بالأحداث الخطيرة ، في السياسة والقيادة والحرب والاجتماع .

١٦٤ صفحة . قطع متوسط الثمن ٣٠ قرشاً

وفي سلسلة (اقرأ) :

● أمير قصر الذهب

هذا أمير عباسي زهد في الملك حيناً ثم طمع فيه حيناً آخر ، ولكنه لم يظفر به . وإذا كانت فاتته زعامة الملك فلم تفته زعامة الفن ، فقد جود في الموسيقى وابتدع فيها مذهباً نسب إليه ... إن قصة إبراهيم بن المهدي هي قصة عصر ذهبي من عصور المسلمين . .

الثمن ٥ قروش